طائرات ورقية

قصص

حسني سيد لبيب



أبو دومة

أبو دومة رجل موهوب الجانب ، مسـموع الكلمة ، لقب بالمعلم ، وان تعارف أهل الحى همسـا بأنه الفتوة · عاطل منذ الصغر ونشأ بينه وبين فصـول الدراسة عداء مستحكم · ألحقه أبوه بورشة ليتقن صنعة من الصنائع ، فاستغنى صاحب الورشة عنه بعد أيام قلائل · انتقل من عمل لآخر ، ولم يفلح فى شىء غير اثارة القلاقل ، واشعال المشـاجرات · عمل صبى حـلاق قرابة الشهر · ثابر ، وتحلى بالهدوء ، ثم لم يطق هذا الجو الخانق ، فترك عمله بمحض ارادته ، عائدا الى الشارع الواسع ، يستهويه تقصى أخبار الناس ، والمشاركة فى المشاجرات · يستعين به البعض فى أعمال العنف ، لقـاء أجر محترم ·· استهوته أعمال الشغب ، ووجد فيها ضالته ، فانتظم فى سلكها ، ليس طرفا فى نزاع وانما مشارك بخدماته مقابل الأجر ·

شاء أن يتزوج · رفض أهل فتحية · أحس بالنقيصة · انه بلا عمل متعـارف عليه · أعمـال الفتـونة ليست من الأعمال التى يطرب لها الناس ، أصر على أن يتزوج فتحية · فلهذا ، قرر أن يصلح من حال نفسه · أقام كشكا لبيع السجائر والمرطبات ، على

ناصية الحارة التى يقطن فيها وجعل عمله هذه مسألة شكلية لا تمنعه من أعمال الفتونة التى اشتهر بها · طور الكشك فصار (غرزة) يلتقى فيها أصحاب المزاج والفرفشة · ورغم أنه مكروه من أهل الحارة ، الا أنهم يجدونه الملاذ القوى · وحامى حماهم · الكل يعترف بأن أبا دومة صمام الأمان للحارة ، فلا تطأها قدم غريب ·

وتحقق له ما تمنى ، فتزوج فتحية وأنجب منها ولدين ·

تطورت حياة أبى دومة تطورا مذهلا فى السنوات العشر الأخيرة ، حيث اشترى عربة مستعملة ، وحولها الى سيارة أجرة بالنفر ، تخدم أهل الحى · ثم اشترى عربة ثانية فثالثة ، حتى امتلك عشر عربات · وبنى عمارة على ناصية الشارع العمومى · وصار من أثرياء الحى · والى جانب سطوته ، تمتع بحظوة لدى الجميع · قلل من أعمال العنف ، وان كانت لصيقة به ·· جاهد نفسه كى لا يتورط فى عراك ، يكفيه ما تدره العربات من مال وفير ، وايجار العمارة ، ومكسب الغرزة · لكن الطبع غلاب ، والصيت ولا الغنى · لن يستطيع تغيير طباعه ويصير رجلا طيبا ! · عرفه الجميع بقوته · ومعه رجال يرتزقون من أعمال الفتونة · أمر واقع لا يستطيع له دفعا ·

استمالته منى ، بنت عم بركات الموظف البسيط ، بنت السادسة عشر ، هادئة الطبع ، بيضاء البشرة ، حلوة القسمات ، متسقة القوام · ناعمة الملمس والصوت والنظرات · لا يدرى متى غزت قلبه تحول انتباهه الى موعد خروجها وعودتها من المدرسة · لم يستطع تكتم هواه ، فباح لأقرانه بما يعتاج فى فؤاده ، فأنكروا حالة الحب التى يدعيها ، وأرجعوا حالة الى نزوة طارئة · النزوة أقرب الى سلوكهم ، لا ضمير فى ذلك ·· البنت حلوة ولطيفة ·

أكد لهم أنه سيتقدم لأبيها طالبا الزواج ، لتكون امرأته الثانية ٠ وأكد لهم أيضا أنه صارح فتحية ، التى اكتفت بالصمت دليل الرضوخ ٠

شاع الخبر فى الحارة ٠ تناقلت الألسنة حتى وصل الى مسامع بركات ٠ انزعج الرجل ٠ عم بركات موظف على قد حاله ٠ منطو على نفسه ، نعم ٠ يسير فى الطريق يكاد يلتصق بجدران البيوت ٠ يلقى التحية على من يصادفه همسا لا يكاد يسمع ٠ ما الذى حدا بأبى دومة أن تربطه صلة نسب بهذا الرجل المسالم ؟٠ حدث زوجته فى هذا ٠ أجابته أن الرجل ينوى الزواج ، مما يدل على سلامة القصد ٠ ثار عم بركات ٠ قال محتدا :

ـ لا ٠٠ سأرفض هذه الزيجة ٠

ولكنه آثر التروى ٠ غرق فى لجج الأفكار ٠ ان لرفضه عواقبه وخيمة ٠ أكدت زوجته :

ـ لا أحد يستطيع مواجهة أبى دومة ٠ ونحن فى حالنا ٠

سيطر القلق على الأم ٠٠

ـ نتقى شره ، ونزوجها له ٠

غضب عم بركات ٠٠

ـ نتقى شره ٠٠ يا للسخرية ٠٠ نمنع الشر بآخر !

ـ كيف ؟ ٠

ـ ماذا وراء زوجه من ابنتى ، غير الشر ؟ ٠ أهنالك خير يرتجى اذا تزوجته ؟ ٠

ـ وما الخير اذا لم تتزوجه ؟ ٠

ـ هل أزوجها لبلطجى الحارة ؟ ٠

ـ فتحية ، زوجته ، تعيش حياة رغدة • كل طلباتها مجابة ، ولوازم البيت كاملة وزيادة •

زاد غضب عم بركات ••

ـ كفى عن هذا الكلام الفارغ • هذا الزواج غير متكافىء ••

جلس وحيدا ، مادا ساقيه على الكنبة الاستامبولى الموضوعة فى الصالة الضيقة • قلب الموضوع على شتى الوجوه ، عساه يصل الى حل مريح •• اذا رفض الزيجة ، ستمتد اليه يد أبى دومة الغاضبة • قد يناله منه مكروه أو من أعوانه •• وقد تصاب منى بأذى •• ارتجف •• لا •• لابد أن يفعل المستحيل من أجل منى • ربما يعاكسها فى غدوها ورواحها الى المدرسة • لابد من سؤالها • تردد •• كيف يسأل ؟ •• وهل منى تستجيب لمعاكساته ؟ •• لا •• أبدا •• انه يثق بابنته • أواه ربى •• ربما •• حاول استمالتها ، واغراءها ، فوبخته • ربما شىء كهذا حدث •• فأصر على أن ترضخ له ، وتصير طوع بنانه ، وذلك بأن يتزوجها • أى تعاقب ابنته •• لا •• لا يمكن أن يظلم ابنته •• مهما كان الثمن •• مهما كان •• مهما •• وكاد يبكى ••

أطل من نافذة الصالة ، المطلة على مشارف الحى ، حيث تلتقى السماء بالمآذن والقباب والمنازل • سأل نفسه فى مرارة : كيف يواجه جبروت أبى دومة بضعفه وقلة حيلته ؟ • تردد السؤال فى جوانب نفسه ، ولم يهتد الى اجابة • جلس يحادث منى ، يسألها :

ـ هل صادفت معاكسات من أحد ؟ •

أطلت عيناها البريئتان •• تتفرسان ملامحه ، كأنها تلومه ، تعاتبه ••

ـ أنا أسير فى حالى ·· لم يمسنى أحد بكلمة ··

ـ أصـــل الغرزة التى على الناصية ، يتردد عليها بلطجية الحى ·

★ ★ ★

حدث أبو دومة زوجته ، قبل أن يخطو الخطوة الأولى · أكد لها أن منى ستعيش فى شقة أخرى ·

ـ سألبى طلباتك وطلبات الولدين ··

ـ لكن ·· أنا خائفة يا معلم · لو ضمنت لى حاجة للأولاد ·· للمستقبل ··

ـ اذا جاء النصيب ، سأتنازل لك عن العمارة · منى ستسكن فى عمارتك ، وتدفع لك أجرة الشقة ·

أردف مداعبا ، وقد مست كفه الغليظة خدها الأملس :

ـ هذا ·· اذا توفانى الله ·

ـ يطول عمرك يا معلم ·· وتعمر البيت ·

لم تطمع فتحية فى أكثر من هذا · ستصبح صاحبة العمارة الشاهقة ذات الطوابق السبع ، والتى تحتل ناصية ممتــازة فى الشارع الرئيسى ·

وفى المساء ، توجه أبو دومة الى عم بركات ، محملا بالهدايا · سار بخطى واثقة · رن جرس الباب · فتح عم بركات · ألجمته المفاجأة النطق · ظل مشدوها لحظات ، يديم النظر فى أبى دومة متفرسا · ثم تحلل من صمته ، موسعا له الطريق ··

ـ تفضل يا معلم ·· تفضل ·· تفضل ··

غلق الأبواب ، وجلس قبالته · بدأ أبو دومة الحديث معددا نواحي ثرائه ، مباهيا بثروته ، ومكسبه الوفير · ثم كاشفه برغبته فى أن تكون منى زوجة له ··

ـ لكن ·· منى ·· يا أبا دومة ·· تلميذة فى المدرسة ·

ـ نتزوج ·· وتنهى الدراسة براحتها ·

ظللتهما سحابة صمت ثقيلة ، بددها أبو دومة بكلماته المتلاحقة ··

ـ سأقيم فرحا لم تشهده الحارة ·· حتى الصباح ·· سأحضر كذا فرقة ·· رقص ومغنى وفرفشة ·· وأذبح عجلا ··

وعادت سحابة الصمت الثقيلة ·

من جديد ، يقطع أبو دومة الصمت بصوته الأجش ، متحسسا كرشه البارز :

ـ ان كان على فتحية ·· لا تحمل هما ·· ستقيم منى فى شقة كبيرة لوحدها ، منى محل رعايتى وعنايتى ·

كلمات أبى دومة تخرق طبلة أذنيه · ود لو يظل غارقا فى صمته ، غافلا عنه · لكن ·· يجب أن ينطق ، أن يقول شيئا ، أن يحدد موقفا · تمنى أن يحمل هداياه ويرحل ·· ولا يعود أبدا ·

لابد من كلمات تقال · التسويف مهم ، ريثما يتدبر الأمر ·

ـ يا معلم ·· انت فاجأتنى · لابد أن أكلم منى أولا ، قبل أن أرتبط بكلمة ·

ـ واجب ·· معك الحق ·

احس أبو دومة بجفاء المقـابلة · لم يرحب به · لم يشتر خاطره · هو لم يخطىء · دخل البيوت من أبوابهـا · فما باله ولكن لابد من التريث حتى لا ينزلق فى تفسـير الأمور تفسـيرا خاطئا ·

واستاذن تاركا هداياه وتاركا عم بركات غارقا فى حيرته ·

المواجهة بين الرجلين ليست عراكا أو صراعا هى مواجهة غير متكافئة وتركت صدعا يحار كلاهما فى مداواته ورأبه · افترق الرجلان وانطوى كل على مواجعه افترقا وما كانا ليتلاقيا من قبل شتان المسافة التى تباعد بينهما كلاهما يسلك طريقا غير الآخر · أبو دومة فتوة الحارة الجميل الطلعة المسموع الكلمة المرهوب الجانب بما يشـكله سلوكه من خطورة على الأمن هـذا الى جـانب ثرائه · وعم بركات موظف الحكومة الهادىء الطبع المنطوى المتزن بما ينطوى عليه سلوكه من دعة وهدوء ومسالمة ·

أبو دومة جاجلس على الدكة الخشبية وسط أقرانه فى غرزته المعتادة يشاورهم فى الأمر ·· يقترح أحدهم :

ــ نخطفها يا معـــلم ·

ويقول اخر

ــ نقنع عم بركات بالأمر الواقع ، أقصد نجبره عليه ··

ويقول ثالث ·

ــ نقنع امرأته أولا ، وعن طريقها يقتنع بركات ·

استنفرته اقتراحاتهم · زعق فيهم :

ــ هذا كلام طائش · الأفضل انتظار الرد · عساه يقبل ·

قال أحدهم :

– ما هذا الضعف يا معلم ، يا فتوة الحى ؟

– ليس ضعفا . أجمل شيء ، أن تقبل منى الزواج ، دون ضغط . منتهى السعادة .

– منى بنت صغيرة . لا تعرف شيئا عن الزواج سوى ما يقوله أبوها .

– دعوا أفكاركم ، ولننتظر الرد .

أما عم بركات ، فقد جلس مع ابنته ، وأشار الى أبى دومة . بكت منى بكاء مرا . لم تقل حرفا واحدا . البكاء أبلغ من أى كلمة تقال . قالت أمها :

– البنت صغيرة ، لا تعرف مصلحتها .

– لا .. لن أزوجها رغم أنفها . لن أحطم كبرياء الشباب وطموحه .

– هل تقدر على مواجهة أبى دومة ؟ .

– وهل نرضى لمنى الأحزان والآلام طول العمر ؟ .

– فلنبحث عن سكن آخر ، ونترك الحى ، بعيدا عن أبى دومة وأعوانه .

– أين السكن فى أيامنا هذه ؟ .

صوت قوى يصخب فى جوانب نفسه : لن أرضخ . لن أخاف .. لن .. لن ... وكانت صورة منى تزهو فى مخيلته .

وذات صباح ، خرج عن بكرة أبيه ، حاملا لفائف الهدايا التى أتى بها أبو دومة . طرق باب مسكنه . فتحت زوجته ، ثم هرولت تستدعيه .

حين رأى عم بركات ، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، سرعان ما تقلصت ، ثم تجهمت سحنته ، حين رأى اللفائف بين يديه · أعطاه اياها قائلا فى صوت وقور متحشرج :

ـ لا مؤاخذة يا معلم ·

قال بنبرات قاسية :

ـ ترد الهدايا ·· هذا عيب ··

ـ أصل البنت ·· صغيرة ·· و ·· لم تزل فى المدرسة ··

خانته بقايا الكلمات · وضع اللفائف على نضد قريبة ، وأولاه ظهره · وقفل عائدا الى بيته ·

اعتكف فى بيته ، يرتقب رد فعل أبى دومة · الأم ترتجف خوفا · احتضنت منى أباها وأكبرت موقفه ، وطفقت تهدىء الأم وتطمئنها ·

أما أبو دومة ، فلم يسلم من تقريع فتحية وشماتتها · التف رجاله حوله ، عارضين خدماتهم · الانتقام واجب من هذا الموظف الصـــغير الشـــأن ، الأحمق فى تصرفاته ، قليل الذوق والفهم والكياسة ، هكذا صارحوه وقد تملكهم الغيظ والغضب ·

ولكن أبا دومة بدا مهزوم الوجه شاحبه · لا يحبذ انتقاما وبدا فاتر الهمة ، وقد اتشحت المرئيات أمامه بالسواد · لم يعرف للنوم مرقدا ، ولا للطعـــام مذاقا ، ولا للشراب ارتواء · تمر منى أمام ناظريه فى غدوها ورواحها ، فتاة صغيرة جميلة ووادعة · ولكنها بعيدة المنال · يحاول رجاله أن ينسوه أحزانه ، فما عهدوه بهذا الضعف ··

ـ أهو الحب يا معلم ؟ ·

ـ لا ٠٠ انها أحزان السنين ٠ كل ما وصلت اليه من قوة وثراء ونفوذ ٠٠ أصبح في نظر العصفورة الصغيرة ، أشياء لا قيمة لها ٠

ـ يا رجال ٠٠ كفوا أيديكم عن مني وأسرتها ٠

وحدث نفسه قائلا : « وينبغي على أن أخفي عواطفي وأنسى ٠ هل أقدر على النسيان ؟ ٠٠ ربما ٠٠٠ » ٠

ثم انتصب واقفا بين رجاله ، رافعا عقيرته ، محاولا أن يواري ضعفه :

ـ سأحمي مني من كل أذى ، مثلما أحمي حارتي وجيراني ٠٠ وأرعاها كابنتي ! ٠٠٠

(ابريل ١٩٨١)

القيد

في الصغر ، كانت الظلمة تخيفني ، ترعبني ، فيرتعد جسمي وأخاف من الوحدة . يقشعر شعر رأسي عندما تضطرني الظروف الى أكون وحيدا ، أو أتواجد في مكان مظلم . وفي الكبر ، انقلبت الى الضد ، فأحببت الوحدة ، وعشقت خفوت الضوء ، وانتشيت بالظلمة . قد تزاحم الناس من حولي وأزعجتني الأضواء المنبعثة والمنعكسة ، وتمنيت الهروب ، ولكن كيف ؟ .

ما زلت أذكر شيئا من طفولتي . لم تكن محببة . كنت طفلا مضطهدا . يوبخني أبواي لأتفه الأشياء ، وأوهى الأسباب . فلابد اذن من الحذر الشديد . لم أمرح كالأطفال ، وتقوقعت أسير مفاهيم شغلت بها نفسي عن الخطأ والصواب . وانشغل عقلي كثيرا .

اخترت لي صديقا من زملائي في المدرسة . أو هو الذي اهتم بحالي . أحببته كثيرا ، وارتحت لصحبته . ثم انقلب حبي الى كراهية ، بعد أن صار ملازما لي ، وضروريا في حياتي . أغراني بقصص الأطفال التي كان يعيرني اياها . يا له من صديق أنا في حاجة اليه ! .. أذاكر معه وألعب معه . ولا أفارقه الا حين آوي

الى فراشي • انزعج أبى ، ولطمتنى عباراته القاسية ، بأن الاختلاط أمر سيء • وتعمد أن يحرمنى من صديقى ، ويكبل ارادتى • أوهمنى أبى أن الاختلاط يجلب المشاكل ، كما حذرنى من تعلقى الشديد بصـــديقى ، وأشار الى ضرورة الاعتماد على نفسى • أنا لم أعتمد عليه ، لكنه كان ضروريا فى حياتى • أحس معه بالراحة • ألا يبدد وحشة المكان ؟ •

كنت آوى الى فراشي ، فتاتيني أحلام الليل المرعبة ، وأرى أشباحا مخيفة •• يتعملق منها شبح بجناحين كبيرين ، ويركض نحوى ، فاعـــدو بأسرع ما أستطيع ، لأنجو من يده المخلبية التى هي قاب قوسين أو أدنى منى ، وأصيح صياحا كالصراخ ، وأفيق من نومى ، فتهدأ نفسى وتأمن • لكننى أحدق فى الظلمة ، ثم أدثر نفسى بالغطاء ، مخبئا وجهى ، وأمكث على هذه الحال طويلا الى أن تطوف بمخيلتى صورة صديقى •• فتطمئن نفسى وأغمض عينى وأنام •

كان صديقى ، ضروريا فى حياتى •

كبرنا سويا • ما زال أبى ينصحنى بأن أعتمد على نفسى • وما زلت أكبر حق الصديق على ، أعترف أنه أقدر منى على التصرف• كنت ألجأ اليه وقت الأزمات • أغرانى بالاستماع فتناول الكلمات ، وغالبا ما أثير معه قضية شائكة ، تسبقها علامات استفهام وحيرة • كنت أرتاح لمجرد الحديث مع شخص ينصت لما أقول •

وفى يـــوم ، التقيت بوفيق • شـــاب ذو صلات عـــديدة • صدمنى قوله :

ــ من هم اصدقاؤك ؟

ــ لى صديق اسمه اسماعيل •

هز رأسه مستنكرا :

ـ فقط ! ٠

أحسست أنى قزم ٠ لو يعلم وفيق ، صديقى يملأ دنياى ٠ نظراته تهزأ منى ومن سلوكى فى الحياة ٠ أحسست أنى انهزمت ٠ وتراءى لى اسماعيل انسانا يرقب خطواتى ، يكبلنى ، وأنه بقعة مظلمة فى ثوبى ٠ أو أنه المرآة التى أرى فيها عيوبى ! ٠ انقلبت أحاسيسى نحوه ، هذا الانقلاب المفاجىء الذى لا أستطيع أن أجد سببا واحدا له ٠ لكنه أسقط فى يده ذلك الاحساس الحاد بالألم ٠ وتغيرت نظرتى لاسماعيل ٠ فهو يتطفل على حياتى ، يدفعه الفضول الى معرفة كل شىء عنى ٠ يستحثنى صمته على الكلام ، على المزيد من الكلمات ٠ ومن الكلمات أستولد كلمات أخرى ٠ وطفق لسانى يتحدث سنوات طوال ، أحلل مشاعرى ، كأنى جالس على كرسى اعتراف قبالة صديقى ، وأعرى ذاتى أمامه ٠ وهو لم يبادلنى بحديث مماثل عن نفسه ٠ كم كنت غفلا اذ صدقت أنه يؤثرنى على نفسه ، ولم أتبين أنه فضولى ٠

صدقت يا أبى حين قلت لى : اعتمد على نفسك ٠ لم أتبين مغزى النصيحة سوى الآن ٠ أضعت سنوات من عمرى ، دون أن أعرف مصلحتى ! ٠ فوجىء اسماعيل بغضبى وانتقادى له ٠ وانسحبت فى هدوء ، عازما على بدء حياة جديدة ، وعقد صلات بآخرين ٠ لابد أن أنفتح على الناس ، كل الناس ٠٠ بدل القمقم الذى حصرت نفسى داخله ٠

وداعا يا اسماعيل ٠ وداعا صديق الانسحاق والاحباط والألم ! ٠ ومرحى بالحياة الجديدة الباسمة ٠

رافقت ثلة من الزملاء ٠ وعرفت فى سن المراهقة أشياء لم أكن أدريها ٠ وطدت صلتى بوفيق ، فأعارنى كتبا فى الجنس ٠

قرأتها بنهم ، حيث فتحت لى نافذة على أرض جديدة · وشاقتنى التجربة ولكن كيف السبيل ؟ · تابعت الأفلام السينمائية ، أشاهد منها ما يعتمد على الاثارة الجنسية ·

وبحثت عن مجلات بها صور عارية ، وأشتريها بأى ثمن · وتلصصت على جارتى ، دون أن ترانى ومن يومها ظللت أسير جسد المرأة · وصارت الأنثى ــ أى أنثى ــ شيئا حادا فى حياتى · لكنى محروم ، لم أجرب · وتذكرت صديقى القديم ، الظل الذى كان يتبعنى ، أو ذلك الذى كنت ظله · صديقى لا يعرف دنياى الجديدة · وان كان على علم بصداقتى لشبان فى سنى ، وذوى ميول وأهواء مختلفة · أحدهم كان مثل (دون جوان) دائم الحديث عن حبيباته !· وثان يدمن القراءة ، يطالع كل كتاب يقع بين يديه · وثالث يلذ له الحديث عن تجاربه الجنسية بإباحية ولا يستحى من شىء ، وان كنت أشك فى صدق ما يقول · ولابد أنه يعتمد على الخيال · ورابع يلذ لى لعب الطاولة معه ·

بعد أن قاطعت اسماعيل شهورا قليلة ، شدنى الحنين اليه · فاجأته بزيارة · معلنا له بدء صفحة جديدة · رحب بى · وتفاخرت بما عرفت من أصدقاء ومن خبايا ·· انها حياة جديدة يا اسماعيل · وتعملقت أمامه · دنياى زاخرة بالحركة والناس ، ودنياه محدودة · تصاغر أمامى · أحسست أنى منفوش كالطاووس · حدثته مزهوا عن الكثير مما عرفت ، وأخفيت عنه أمور الجنس ، وكان يسمعنى بغير ملل ·

اكتشفت بعد فترة أن لى حياتين · حياة العزلة التى لجأت اليها ، وقد انفض من حولى الأصدقاء · كل مضى لحال سبيله · كل صرفته مشاغله عنى ، فعشت وحيدا ، أخالط الناس ولا أوطد صلاتى بهم · وحياة ثانية أقضيها مع صديقى ، أحس خلالها أننى

أفضل من صديقى • أظل أحدثه عن العالم الخارجى • ويعمه سرور بما أروى • اكتشفت كذلك أن اسماعيل يعيش فى عزلة • كيف لم أتبين ، وأنا صديقه منذ سنوات • يتعرف اسماعيل على العالم الخارجى من خلالى •

أنهينا الدراسـة الجامعية • وآثر العجلة وتزوج من امرأة اختاروها له ، بينما عاندت نفسى ، ومكثت طويلا أبحث عن زوجة مناسبة • انقطعت صلتى باسماعيل • أحسست أنه رسم لنفسه طريقا آخر • لزوجته سلطان عليه • لم نعد نتقابل سوى لقاءات عابرة ، أو لقاءات صنعتها الصدفة • وكل يمضى لحال سبيله •

عاندت فكرة الزواج • الزوجة المناسبة لم أكتشفها بعـد ! بنات كثيرات عرضن على ، وأجدهن غير مناسـبات ، أو أنى غير منـاسب لهن • وتقدم بى العمر ، الى أن اهتديت الى واحـدة ، فخطبتها • أحسست أنهــا ترضى الغرور الذى بنفسى • لعبت بعواطفى ، وأسكرتنى بكلمـات حب كنت أظمأ اليها • كنت فى أشد الحاجة الى لقاء اسماعيل ، لكنها فترة مريرة • فقد عشت تجربة لا أملك التباهى بها مع أحد • وثرت على نفسى • لماذا أحصر حيـاتى بين قوسين ؟ • ولماذا أعمد الى سرد تفاصيل حيـاتى لهذا الصديق ؟ • مسألة نفسية • صارحت نفسى بهذا • ولكن هـل يحق لى التمرد على سلوك اعتدته منذ الصغر ؟ • وهل قدر لى أن أحيا وأكون ظلا لصديق ؟ • ان فارقنى ، صرت بلا هوية ، أو انعدم الظل ذاته ، أم أن هنالك ظلا بدون شىء يدل عليه ؟ • سخرت من نفسى • لابد أن أعتمد على نفسى ، هكذا قال أبى كلمته عندما كنت صغيرا • لكن اسماعيل لم يفرض على شيئا • قد أسرنى اسماعيل ، باختيارى ! • انه كالسجن الذى يحب المرء أن يحبس نفسه فيه • لماذا ، والدنيـا بهيجة من حولك ، تصر على أن يعيشهـا معك اسماعيل ؟ • كاشفت نفسى ، وحاولت أن أهرب من القيد •

أخرج مع هناء ، خطيبتى ، أعيش أسعد لحظات العمر . ثم أعود فى المساء ، أريد أن أنقل سـعادتى الى صفيى . فأين هو الآن ؟ . أيملك أن يحطمنى ، بالبعد عنى ؟ . لو نقلت لهناء ما أحس به ، لسخرت منى ، لابد أن أقبر هذه المشاعر ، وأعيش حياتى . ولأول مرة أحس بالخوف من الظلمة وبرودة الشتاء والضـوضاء والاضاءة المبهرة . خالجنى احساس بالمجهول الغامض الذى يمكن أن يغرز نابه فى لحمى .. أن يدمى جسدى .. أهو الموت الذى أخاف ؟ . يا لك من انسان غريب . دبرت لقاء مفاجئا مع الخل القديم . زوج قيدته زوجته بمواعيد ومشاغل . ذهنه ليس صافيا ليسمع ثرثرتى عن تفاصيل حياتى ! . حياتى لا تهمه الآن ! . وواتانى احساس بالوحشة فى هذه الدنيا الواسعة . صدمت . قلت مازحا :

– ليت أيام الشباب تعود .. كنا نطيل السهر حتى الفجر ، ولا نمل الحديث فى كل شىء .

– كانت أيام ..

ويسهم جامدا . من جديد أمازحه ، أذيب جبال الثلج الحائلة بينى وبين الاقتراب منه :

– خضت التجربة قبلى . قل رأيك فى الزواج ؟ .

قال ببرود شديد :

– كما ترى ؟ .

يغيظنى صمته . فبينما أنا كثير التحدث عن نفسى ، كان هو قليل الاهتمـام بالتعبير عن نفسـه . كنا على طرفى النقيض . اسماعيل شغوف بمعرفة أسرار الناس ، بينما هو شديد التكتم

لاسراره ، لا يبوح بها لأحد • غامض هو ، ربما ••• ولعلنى أميل الى الثرثرة •

ينبغى أن أتركه لحياته ، وأبصر حياتى بمنظار جديد • ولا داعى لهذه العشوائية • خطيبتى تحبنى ، تهتم بشئونى وتسعد اذا ما قلت لها شيئا • ذات مرة حاولت أن أنقل لها احساسا ما ، قلت :

ـ أشبه نفسى بمن يسير عكس التيار • يعيش ضد ما يرغب • ان كانت له مصلحة فى السير نحو الشرق ، اتجه الى الغرب • وان عرف الصديق لجأ الى العدو ! • واذا ما أسعده حب ، روض نفسه على تعكيره ، فينقلب الى كراهية ! •

تضاحكت وقالت تداعبنى :

ـ عجبى ! ••

ـ كائن غريب، أنا بودى أن أحكى لك عن هـذا الغد الذى يناصبنى العداء • ولكن كيف السبيل وأنا لا أدرى سبب هـذا الشعور •

شردت لحظات ، ثم رسمت ابتسامة ما على وجهها ، وأمسكت بكفى تتحسسه برقة وفى عينيها غنج • هناء أنثى تجيد فن الغزل • طبعت قبلة على جبينها • تحسست مكان القبلة ، وقالت فى دلال :

ـ أمنعك أن تأتى بمثلها •

أثارنى ما قالت ، فصممت أن آخذ قبلة ثانية • وفى هذه المرة احتضنتها ، اعتصرتها بين ذراعى • عاتبتنى ، وكانت فرحة • استأذنت قبل أن يفتضح أمرى ، وانصرفت • وأخذت أذرع الشارع

وقد غمرتنى بهجة مباغتة · وعدت الى فراشى ، وحيدا لا أجد من يشاركنى سعادتى · لمن أحكى ما حدث لى ؟ · تقلبت على الفراش ، أسترجع مفاتن هنـاء : لذة القبلة ·· اغراء النهدين ·· حـلاوة الشهد فى رضابى · ولكن ! · ما حكاية (ضد التيار) هذه ؟ · أيهـا الفيلسوف الأحمق ، لماذا لا تعيش حيـاتك سوية مثل خلق الله ؟ ·

وفى يـوم ، جالست أهل خطيبتى ، لتحديد موعـد لعقـد القران · أفاقونى من الحلم الواقع · ألفيت زوج أختها يحادثنى بطريقة لا تعجبنى · تميزت غيظـا ، فتركت المجلس وانصرفت غاضبا · هرعت هناء فى أثرى :

ــ لماذا تغضب ؟ ·

كأنها تديننى ·

ــ لا أقبل وصاية من أحد ··

ــ لا تفترض أشياء لا وجود لها ·

ــ تصبحى على خير ··

قلتها بجفاء وانصرفت ·

عدت الى فراشى · مبلبل الخاطر · لو أن أبى اعتـاد أن يحادثنى ، ينصحنى ·· لو أن أمى ·· لكن الجميع يعتبروننى الابن البكر ، العاقل الرشيد ·· ولم يحاول أحد الاقتراب من عالمى كلهم خبرونى من الخارج ، الا اسماعيل ·

سأفض الخطوبة وأنهى المهزلة · لا أزيد وصاية من أحد · وانتهى كل شىء سريعا ، كاعصار مفاجىء · ولم يعرف أحد سببا مقنعا · واعتصرنى ندم قاتل على ما فعلت · وحين تراجعت محاولا

رأب الصدع ، أو صدت فى وجهى الأبواب · أصبح بينى وبين هناء ألف ألف باب مغلق · وعرفت حينئذ مرارة الاحساس الذى يخالجنى بأنى أعيش معاندا نفسى ، وأهوى السباحة ضد التيار ، ضد ما أرغب · هرعت الى سماعيل أحكى له حكاية التيار المعاكس ، فثـار فى وجهى · لأول مرة أجد اسماعيل ثائرا ، لاعنا صـمته وتأدبه معى ! ·

هل أغير ثوبى ؟ · كيف ؟ ·

لماذا أتصرف بحمق ؟ · أيرجع ذلك الى كونى انسانا غريبا ، أم لأن الحياة ـ تلك الحياة التى نعشقها ـ أشد غرابة منى ؟ ! ·

اعترانى خوف لمجرد هاجس عابر يذكرنى بأن الموت قريب · خفت ، ارتعبت ·· ظلمة القبر أخافتنى ·· سأكون وحيدا فى ظلمة القبر ، بلا حس وبلا حراك ·

هل ثمة علاقة بين خوفى فى الصغر من الظلمة والوحدة ، وبين خوفى الآن من الموت ؟ ! · وعاد الشبح الأسود ، وحشا كاسرا يركض فى أثرى ، يحاول أن ينالنى بسوء ، ويغرز نابه فى لحمى ·

ويا أيها الصديق الذى ابتعد عنى : لماذا تفترق بنا السبل ؟ · انى فى أشـد الحاجة اليـك · هل تحب أن تسمعنى ؟ · هل تحب ؟ · هل تسمعنى ؟! ·

(نوفمبر ١٩٨٦)

اليوم خمر ..

يحكى أن أميرا من الشرق كان يعيش فى بلاد الغرب . فطاب له المقام واستقر به الحال . وصار واحدا من أهل البلاد ، يتحدث بلسانهم ، ويتزيى بزيهم ، ويأخذ نفسه بطابعهم .

كان يدعى الأمير حسن . ولما ترك بلده وهمومها ، وعاش فى البلد البعيد ، منغمسا فى لهوها ولعبها ، معرضا عن جدها وعملها . أطلق عليه اسم البرنس حسن ، ثم عرف فيما بينهم بالمستر حسن ، ونطقت الحاء هاء .

فتن بالعرى والتحرر ، فعاش حياة اللهو والمجون . وأودع ملايينه فى البنوك ، ونعم بما تدره عليه من عائد مجز . كما اشترى شركة تجارية ، فزادت ثروته ونما رأس ماله . كما أن لشركته مدير تسويق ودعاية ، يثق فى معاملاته . ولم يعمل المستر حسن شيئا سوى ادارة القرص ليعرف أرصدته وأرباح شركته . وان كان السيد جون يريحه من هذا أيضا ، حيث يوافيه أولا بأول بمركزه المالى . والدلائل كلها تبشر بالخير العميم .

جون شخص مرموق . رجل علاقات عامة من طراز نادر . كفء في عمله . مخلص للأمير . يحظى برضاه وينال ثقته . كما أنه كان واسطة التعارف بينه وبين المطربة الشابة الجميلة مرجريت ، التي وقع في غرامها ، وأدمن اللقاء بها ، حتى صار لا يطيق فراقها . أغرقها بالمال والهدايا ، وطلب منها أن تترك الغناء ، انه يريدها ملكا له . كان الطلب غريبا . رفضت أن تهجر عالم الأضواء لمجرد أنانية الأمير ، فرضخ لطلبها وقال ضاحكا :

– اني أغار عليك .

– الغناء في دمي .

– وهواك في دمي .

– اذن ، على أن أوفق بين حبي للغناء وحبك لي ...

وتضاحكت . فقهقه أميرنا قهقهات الرضا والسرور .

نقل اليه جون ما قرأه في مجلة ، عن تقرير من داخل بلاد الأمير . عن الفقر المدقع ، والضنك الذى وصل اليه الناس بينما حفنة من الأثرياء ، تهيمن على مقاليد الأمور . جاء في التقرير : (تكفي ثروة واحد من هؤلاء ، اذا وزعت على الناس المعدمين ، أن تكفل لهم العيش الكريم . فما بالك – عزيزى القارىء – بثروة هؤلاء مجتمعة !) . ابتسم الأمير ورد مستشاره بقوله :

– تبالغ صحافتكم في تقدير الأمور .

– كيف ؟ .

– يعيش شعبنا حياة كريمة .

– أمتأكد أنت ؟ .

تحسس الكاس ، وشربه جرعة واحدة وقال :

ـ كل التأكيد يا جون ٠

أراه جـون صـورة لأسرة فقـيرة ، تسكن فى خيمـة حقـيرة لا تليق بآدمى ٠

ـ لا تشغل بالك بهؤلاء ٠ الحياة التى تبدو لك غريبة ، قد اعتادوها وألفوها ٠٠

بعد صمت قصير :

ـ أعطنى كأسا أخرى ٠

قالت مرجريت :

ـ كفاك خمرا ٠

فقهقه الأمير :

ـ اثنان لا أشبع منهما : الخمر والنساء ٠

احتواها بين ذراعيه ، وتحسس كتفها العـارى ، بينما يده الثانية ممسكة بالكأس ٠ أعجب جون بالمنظر فالتقط صـورة ، واستأذن الأمير ٠٠

ـ ليسمح لى السيد حسن ، أن أستغل الصورة فى الدعاية لنوع من الخمور ، مقابل مبلغ مغر من المال ٠

وفى اليوم التالى ، أراه جون الصورة منشورة فى مجلة ، وقرأ عليه الاعلان ٠٠ (انه يحب الخمر ويعشق النساء) ٠

غضب الأمير ٠٠

ـ الخمر ٠٠ انها حرام ٠

ـ أنت تدمنها يا مستر حسن ٠

ـ لكنها حرام ٠

— كيف ذلك ؟ .

وشرح له عقيدته التى تحرم الخمر . لكنه يشربها . وبعد جهد جهيد ، حاول جون أن يشرح له ما فهم :

— نعم الخمر حرام فى بلدكم .. ولكن فى بلدنا حلال ! .

— يبدو أنك لا تفهمنى يا جون .

— أراك تشرب الخمر ، الى حد الافراط . هذا واقع .

— نعم ..

— اذن .. لا حرج من نشر الصورة .

تعب الأمير . بدا عليه الضيق . لكن جون هون عليه الأمر ، فالمجلة لا يقرؤها أحد فى بلاده البعيدة ، لأنها لا تصل الى هناك ! . وان تسرب عدد منها فلن يجد من يقرؤه ! . فراق له تحليل السيد جون ، فطلب كأسا أخرى ، وقال مداعبا :

— اليوم خمر .. وغدا أمر ..

بذل جهده كى لا يغضب منه الأمير ، بينما تولت مرجريت مهمة الساقى والنديم . أردف جون :

— سأعيد ترتيب الاعلان ، ليكتب هكذا : (انه يحب الخمر الخالية من الكحول !) .

قهقه حسن سعيدا وقال :

— فكرة بارعة أيها الذكى اللماح . واحذف بقية العبارة .. (ويعشق النساء) . وهمس فى أذن مرجريت :

— لا تخشى بأسا يا مرجريت . أعطنى كأسا ! .

يفقد وعيه . يهذى بكلمات غريبة لا يفهمها أحد ، ثم يهتف بكلمات حماسية ، كأنه خطيب يلهب حماس الجماهير . تسنده مرجريت ، ويساعدها جون . يذهبان معه الى البيت . يتركانه ممددا على الفراش ، فاقد الوعي والادراك !

(أكتوبر ١٩٨٦)

محضر اثبات حالة

الحر خانق .. وهبت على المدينة ريح ترابيـة ، فى غضبة حمقاء . انقلب الطقس الى سخونة وتراب ، واصفرت السماء .

التهبت عينـاه واحتقن أنفه . علق التـراب بالسائل اللزج الذى أفرزه جسمه والتصق بجلده . ورغـم غـروب الشمس ، فما زال الجو خانقا . اضطر للخروج ، في وقت لاذ الناس ببيوتهم . حث خطاه نحو عيادة الطبيب ، يحجز دورا لطفلته الصغيرة ، التي اضطرب تنفسـها وارتفعت حرارة جسمها . صـادفه كشك لبيع المرطبات . مد يده الى الثلاجة الموضوعة خارجة . صاحبة الكشك فتاة فى عمر الزهور ، اختبأت داخله محصنة نفسـها من ذرات الغبـار . رمقت الرجل أشيب الفودين بنظرات مشجعة ، فتنـاول الفتاحة المعلقة بمسمار . حين لمحها . خطا نحوها خطوتين ، ونقدها الثمن . وبنظرة الى المجمع الاستهلاكى الملاصق للكشك ألفى عربة نصف نـقل ، ورجلين يعمـلان على اخـراج صناديق كرتونية ، لا شك أن بها لحما أو فراخا أو سكرا أو أرزا أو غير ذلك . تلهى عن قلقه بمراقبة الأيدى بحركاتها السريعة الخاطفة ، وهى تخرج

الصناديق وترصها على العربة · لاحظ أن المجمع مظلم ، والرجلين لا يتحاوران · أطبق عليهما صمت متفق عليه · ورجل ثالث ، تجول عيناه فى كل اتجاه · يبدو أنها عملية سطو · ولكن الباب الجانبى مفتوح بطريقة طبيعية · لاحظت الفتاة نفس ما لاحظه الرجل أشيب الفودين · خرجت من الكشك وفتحت لها زجاجة ، وهمست فى أذنه :

ــ كن فى حالك ·

صدقت ظنونه · عملية محكمة · هذه الصـناديق تذهب الى السوق السوداء لتباع بسعر أعلى استقر الرأى على التقدم ببلاغ · سار بخطوات سريعـة ، ثم تباطأ · تذكر النية المبيتة بألا يحشر نفسه فيما لا يعنيه ·

وتذكر حين قدم مذكرة عن وجود سرقة بمخزن · واضطر ازاء تراخى رئيسه الى أن يتقدم الى الشئون القانونية · وكانت النتيجة أن (شكواه غير ذات موضــوع) · ضحك فى مرارة · وعومل معاملة جافة ، وحرم من المكافآت ·

تباطأت خطــاه ، وتثاقلت قدماه ، أحس بهما متورمتين · ما زالت ذرات الغبار تصفع وجهه · حفظ رقم العربة عن ظهر قلب · وبرغم تقاعسه ، سارع باخراج ورقة وقلم من جيبه ، وســـجل الرقم · لمح رجلا يسير بمحاذاته ويسأله :

ــ كم الساعة ؟ ·

ــ السابعة ··

انه الرجل الذى كان واقفا عند المجمع الاســتهلاكى · هل يقتفى أثره ويتابع خطواته ؟ · استفزه الرجــل · صمم على أن

يزوغ منه . ركب سيارة بالنفر ، ونزل أمام نقطة الشرطة . التقت عيناه بالشرطى المختبىء فى كشك خشبى . حياه ، لكنه لم يعبأ به ، فتجاوزه ودخل أول غرفة صادفته . ذكر للضابط الواقعـــة التى رآها . فقال له :

ـ أحرر لك محضرا . المهم أنك متأكد من صدق ما تقول ؟ .

ـ كل التأكيـد .

راجع نفسه ، ثم قال :

ـ الأفضل ان تبلغ مباحث التموين . مكتبها على بعد أمتار من هنـــا .

لماذا تراجع الضابط ؟ . أصر على فتح المحضر ، أعطاه بطاقته ، امتثل الضابط ، وحرر الشرطى ما يمليه عليه الضابط .

ـ هل تسمح لى برقم المحضر ؟ .

ـ ٥٢٥ .

خرج سعيدا ، وتوجه الى مباحث التموين . أخبر عن الواقعة. فأجابوه بأنهم سيتخذون اللازم .

دبت فى صدره نار الحمية . أحس أنه فعل ما يمليه الواجب. تذكر الرجل الذى كان يراقبـه . لا شـــك أنه حفظ شـكله . ليكن ما يكون . قد علمه أبوه رحمة الله ، أن يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على عمل ، واذا ما بدأ عملا عليه ألا يتردد أو يتخاذل ، مهما كان الثمن . نصيحة غالية يسترجعها من وقت لآخر عن قناعة تامة.

ومن الأمور التى وعاها أن يحصن نفسه جيدا ، حتى لايقع فى فخ جديد .

وحين راقب الطريق ، لم يعثر على الرجل الذى كان يتعقبه . الحمد لله . ليتجه الى مكتب البرق ، ويملى برقيـــة الى وزيـر التموين . أحس برأسه تلتهب من لفح الهجير . لا يهم . فبداخله بهجة . انه ينجز عملا لوجه الوطن . لابد من كشف اللصـــوص والمرتشين والخونة والوسطاء . وتذكر نشيدا فى حب الوطن ، كان يردده مع زملائه ، على مسرح الكلية .

كتب البرقية . عامل البرق يرمقه ، ويسأل :

ـ أمتأكد من الواقعة ؟ .

نظرات مشفقة محذرة من العاقبـــة . وأهمله قليلا منشغلا عنه ، ليعطيه فرصـــة للتراجع . لكن التباطؤ جعله يحتـد . طلب البطاقة فناوله اياها . تزاحم اثنـان حوله ، ينتظران دورهما فى كتابة برقية . كتب عامل البرق ايصالا بالمبلغ . امتدت يد الرجل بلفـافة مكورة صغيرة . أخرجهـــا لينظر ما بها . فانقض عليه الى جيب سرواله لينقد العامل أجر البرقية ، لكن يده اصطدمت الرجلان يمسكان بيده صائحين :

ـ قطعة حشيش ! .

ذعر الرجل . تمتم :

ـ من أين ؟ .

ـ اذهب معنا الى النقطة ..

ذهل الرجل ، لكنه تمالك نفسه وقال برباطته جاش :

ـ سأذهب معكما ، ولكن أرسل البرقية أولا ..

***

أمام نفس الضابط الذى حرر محضرا بواقعة المجمع · فتح محضر ثان ، عن واقعة ضبط قطعة حشيش في جيبه · قال الرجل في أقواله :

ـ كان هناك شخص يراقبني ، ومن المحتمل أنه دس اللفافة فى جيبى ، حين سألنى عن الوقت ، واحتك بى ··

وأخذ رقم المحضر الثانى ٥٢٦ ·

اكتفى الضابط بالمحضر ولم يحبسه على ذمة القضية ، فى الحجز · اما رجلا المباحث فقد تحللا من اصرارهما ، ازاء نظرات الضابط الحاسمة ·

هرول الرجل أشيب الفودين ، مسرعا الى بيته ·· متعبا · مكدودا ·· رمقته زوجته · كان قد نسى حال ابنته · لم يشأ أن يقلق زوجته بشيء · طلب منها حمل الطفلة للذهاب الى الطبيب · أفهمها أنه سيدفع أجر الكشف المستعجل ·

وفى الطريق ، كادت سيارة تدهسه · طرحته أرضا · ربنا ستر · الحمد لله · سليمة ان شاء الله · التف المارة حوله وأنهضوه · صوت ينبهه :

ـ الحمد لله · قدر ولطف ·

صوت طيب ثان :

ـ هل تشعر بشيء ؟ ·

أجاب :

ـ الحمد لله ··

أمسكت زوجته بيده ، واليد الثانية تحمل ابنتها · فكر قليلا ، وغمغم بصوت واهن ·

ـ عملوها الجبناء اللصوص ..

لم تفهم زوجته شيئا ، بينما هو يغالب الألم الغائر فى نفسه ، ويده اليمنى تتحسس ســـاقه اليمنى ويبـــدو أن كدمة بســيطة أصابتها . تحامل على نفسه . وكتم مواجعه ، متجهـــا بابنته الى عيادة الطبيب ؟ .

(نوفمبر ١٩٨٦)

رائحة الفل

لا أدرى كيف تسلل الحب ، خلسة ، الى قلبى • نما شيئا فشيئا ، كنبت أخضر •

لم أكن أعير أمنية التفاتا ، ولم تتعد صلتى بها التعاون معها لانجاز أعمال نكلف بها • وكثيرا ما ألومها لتكاسلها وتراخيهـا ، ثم أردد مقولتى الشهيرة : « مكان المرأة البيت » ، فاكسب تأييد الزملاء ، وترجمنى الزميلات بالسخط واللوم ، ويختلقن المعاذير ، فخروجهن للعمل لمصلحة الرجل وشد أزره • وكانت أمنية تلوذ بالصمت • برغم تقدمها فى السن ، الا أن تقاطيع وجهها تنم عن طفولة حلوة مازال السحر الملون للقسمات هازما لعشرين سنة خلت من عمرها • الفم الصغير الضاحك ، يفضح حبات اللآلىء الكامنة • والخدان المتوردان ،هما لفتاة فى السادسة عشرة • والعينان قد انكسر بريقهما ، وما زالتا بريئتين مخلصتين •

اقتعد كرسيى ، وانجز مكاتباتى • أسحب بعض الملفات من على مكتبها ، قاصدا مساعدتها ، فترضى ولا تتذمر • ذات مرة ، حـدثتنى عن بيتها وابنتها • ولم تحدثنى عن زوجها الذى سافر

للعمل ببلد عربى . عرفت من الزملاء أنها طلقت منذ سـنوات . وصارت أمانى كل شىء فى حياتها أما الجرح الغائر ـ الألم الدفين ـ فتستعيض عنه بالحديث عن ابنتها ، فأحببتها وشعرت أنها تكاد تقيم فى بيتى أختا لمحمود وعلاء . أقلق لمرضها مثـل قلق أمها ، وأكثر السؤال عن صحتها حتى أتأكد أنهـا شفيت . وكل أجازات أمنية من أجل أمانى ..

« هى اليوم مريضة ، فاستأذن غدا » .

« سأقدم أوراقها فى مدرسـة حضانة ، قد أغيب عنكم يوما أو يومين » .

« ما رأيك يا مدحت : هل أقدم لها فى حضانة العربى » .

« سأذهب وأمانى الى حديقة الحيوان ، قالت لى أنهـا لم تر الفيل وزلومته » .

« والنبى يا مدحت تغطي عملى اليوم » .

أمانى ملكة متوجـة على عرش مملكة الأم . تطلب فتجـاب طلباتهـا .

ـ جعلتنى أحب أمانى ، وأتمنى أن أراها .

وفوجئت بها تحضر أمانى معها . احتضنتها وقبلتها وأحضرت لها الملبس والشيكولاته .

بدأت أقتـرب من عالم أمنيـة . اكتشفت ـ بعـد زمالة خمس سنين ـ أنها عصبية المزاج . كثيرا ما تثور فى وجه رئيسها ، وتلقى بملفات العمل فى وجهه ، متحدية اياه ، فأعمل على تهدئتها ، واختلق لها المعاذير أمام الرئيس . وسرعان ما تتحلل من عنادها

وتصبح قطة لينة تأمرها فتطيع . عرفت أنها فى بيتها تمر بهذه الحالات ، وما يظهر فى العمل مجرد أعراض خفيفة . وبما لأنهـا تعيش وحيدة مع طفلتها وأمها العجوز التى تقول عنها دائمـا : « أمى فى حاجة لمن يساعدها » .

لم يعمر زواجها غير شهور قليلة . بدأت تتحلل من تحفظها ، وحكت لى عن زوجها السابق ، الذى كان يعاملها بأنانية لاتطاق ، ويفضل مصلحته فى تكوين ثروة مالية ، دون اهتمام بشئونها . غضبت احتدت معه لمشاركته أخيه فى تجارة ترى أنها حرام فى حرام . فرماها بقول لا يليق فطلبت الطلاق فى لحظة انفعال ودفاع عن الكرامة ، فأجاب طلبها ...

لم تندم . أحسست بهـا وهى تصف ما حـدث ، تكاد تبكى ألما ممضا على حالها ...

ـ لم أندم . صدقنى لم أندم ، لسبب بسيط هو أن الزوج الذى يفك رباط الزوجية بسهولة ، ليس جديرا بقلب المرأة .

بكت . أخرجت منديلى ، فسبقتنى بمنديلها تجفف دموعها .

ـ أتعرف لم أبكى ؟ . طلقنى وأنا حامل فى أمانى ، فى الشهر الرابع . هل تصدق ؟ .

ـ جبان .. تافه ..

ومن يومها ، لم أشأ الخوض فى هذا الموضوع . تركت لأمانى الحرية فى أن تستحوذ على اهتمامنا وتشغلنا .

وكانت سعادة أمنية فى اسعاد أمانى ...

وفى يوم ، سألتنى عن دواء للسعال بحثت عنه فى الصيدليات فلم تجده . فأخذت أبحث عنه حتى وجدته . ورفضت أن آخذ

ثمنه فشكرتني ووضعت على مكتبي باقة فل · فرحت بالفل الذى أرجعني الى أيام الخطوبة ، حين كنت أتنزه مع خطيبتي ــ زوجتي الآن ــ على كورنيش النيل ، وبائع الفل يغازلنا بعناقيده البيضاء · أمد يدى لأتناول واحدة ، فينتهز الفرصة ويعطي للتي أصبحت أم أولادى أربعة أو خمسة عناقيد ، فاضطر أن أجزل في العطاء · وأسير سعيدا مع حبيبتي ورائحة الفل تسحرنا تجمل الأمسية ·

عاد قلبي يخفق كخفقانه في العشرينات · لم أعد ذلك الرجل لوقور الهادىء ، الذى استقر بعش الزوجية · وادما صرت طائرا خفيف الوزن ، أكاد أطير فرحا في سماء جديدة · صارت أمنية انسانة لطيفة ورقيقة · ولم أدر ما حدث لى بالضبط ؟ · مشاعر غامضة جعلتني أدنو منها ، وقلبي يرقص فرحا · لا أدرى لأى هدف أو غاية · واختلقت مناسبة عيد ميلاد ابنتها ، وزرتها ومعى هدية · فرحت بى وقدمتني لأمها المسنة وصديقتيها ميرفت ورجاء · والتففنا نحن الخمسة حول أمانى · تعمدت الوقوف بجانب أمنية ، أحقق رغبة صبيانية بأن أقترب منها ! · وهل اقتراب جسمى بجسمها يحقق ما أريد ؟ · ماذا أريد ؟ · أهى ترجمة عفوية لشىء لا أدريه ؟ ·

كنت سعيدا حقا وفى أحسن حالاتى ·

شعرت بارتياح لأنى صارحت زوجتي بأنى ذاهب الى حفل عيد ميلاد أمانى · اعتذرت هى ، وألححت عليها كي تصحب محمود وعلاء ، فتعللت بوعكة ألمت بها · وفرحت لطيبة زوجتي ·

عدت فى مساء متأخر لأجدها نائمة تحتضن الولدين · لم أشأ ايقاظها · وقضيت الليل يقظا أفكر فى أمنية · ولا أدرى حقيقة مشاعرى · كل ما أدريه أنى أحببت شيئا غامضا يدفعنى

للقاء بها . هذا الشيء الغامض لا أدرى كنهه .. أهو حب أم عطف أم صداقة أم تعويض لفراغ عاطفى أم هو كل ما ذكرت ؟! .

رائحة الفل تعبق بمكتبى . وأصبحت محل حسـد الزملاء الذين يتقاطرون على من حين لآخر ، تجتذبهم الرائحة الأثيرة . حريصة هى على باقة الفل كل صباح . وعطر داخلى يضمخ أعطافى . وكان ميلاد جديد لعصفور الحب بقلبى . هل أنا قادر على البوح ؟ . اكتشفت عجزى . كل ما أستطيع ، حديث مكرر حول مشاكل العمل وزحام المواصلات وعبث الأولاد . ذات مرة تجرأت فقلت :

ـ رائحة الفل تعطر مكتبى ، أشكرك يا أمنية .

افتر ثغرها عن ابتسامة صامتة .

وكان ذلك قصارى ما استطعت قوله .

لماذا يتحول القلب ؟ . أم أنى أعيش مرحلة ليست مناسبة ؟ .

وذات ليلة ، حلمت بأمنية . تنام معى فى فراشى . يا لجرأة الأحلام التى أرتنى جسدها الأبيض الناعم !. كان حلمـا لذيذا صحوت منه على ضجيج الأولاد وصراخ الأم :

ـ البس يا محمود . وأنت يا علاء ، ضع كتبك فى الحقيبة .

هل كان الحلم تعويضا لشيء ينقصنى ، أم أنه يكشف رغبتى الخبيثة التى خبأتها فى الحنايا حفاظا على ما يسمى بالأصول ؟ .

وجالستها فى الصباح . حدثتنى عن تسلط المدير ، وكنت صموتا أجتر الحلم وأعجب لدنيانا ، ففى السرائر عالم غير عالمنا الذى نعيش . وهل بمقدورى أن أحكى الحلم دون أن تسيء الظن ؟.

شيء خفي جعلني أحلم حلما يزيل قشرة ناعمة تشبه غلاف السلوفان الرقيق الذي لا يستر شيئا .

أأقول الصدق بأني بالأمس حلمت بها امرأة بين ذراعي ؟ .
بالطبع لم أقل ، وتدثرت بالصمت وشاحا .

(فبراير ١٩٨٧)

فردوس

انت جميلة جدا يا فردوس . كيف أصـونك من الفتنة ، من العيون الوقحة وهذا جسدك يعلن للناس اعجـاز الخالق ؟ . الطرقات مليئة بالذئاب . عيونهم لا ترحم . تفترس أى أنثى . وأنت يا فرودس ... كيف أحمى الجمال ؟ » .

« لا تخف . ثق بأنى واعية . ولكن حذار من أن تسجننى ». الحياة حلوة . حلوة جـدا . لكنها تصـير عذابا عنـد الخائفين المرتعشين . عيون الذئاب التقى بها ، فعـلا ، فى كل الطرقات والمنعطفات . عيون وقحـة . أفهم بغريزة الأنثى مطمعهم . أواه يا أبى . لا تنزعج . أنا أنثى . لى حق الحيـاة ، وحق التعبير عن نفسى .

« كيف آمن ، وهذا شـاب تعرفينه ؟ . فتشـت فى كتبك ذات مساء . كنت نائمـة : فغافلتك واقتحمت مكتبك الصغير . قرأت الأوراق المبعثرة ، وفتشت كشاكيل المحـاضرات . أمسكت بكشكول من يدعى سراج . ها قد وقعت فى الفخ » .

« يا محفوظ . كفاك عقدا . فكها . دع البنت تختار بنفسها. لا تكن كأبى الذى حبسنى فى قمقم ، ولم أفهم من الحياة شيئا ، حتى تزوجتك . كيف طاوعته ؟ . كنت منساقة وراء تقاليد الأسرة . لا أريد لفردوس مصيرا كمصيرى . اذا كان لى حق الاختيار . من يدرى ؟ . ربما لاتكون أنت منية النفس » .

« هذا حال المرأة . لاترضى بنصيبها . يخيل اليها أن هناك أزواجا أفضل من زوجها ، لكنه النصيب الذى أوقعها فى الشرك . ألا تحمدين الله يا بهيجة بأن أنعم عليك بزوج مثلى ، محب لبيته ؟» .

« لك الله أيهـــا الحب النابت فى قلبى . بدأت أحب سراج شاب مهذب . ليس كالشباب الرقيع . آه لو يجالسه أبى ، يحادثه ، يقترب منه . سيحترمه ، ويغير نظرته الناقمة تعمدت أن أضع كشكوله على مكتبى . أعرف أن أبى يتمم على كتبى وكراساتى. وضعت الكشكول ظاهرا .. وفى الصباح ، أحسست من تصرفاته أنه عثر عليه . بدا قلقا . تمنيت لو يفاتحنى ، فأغمره بكلمـات الطمأنينة . لكنه آثر التكتم ، ويسائلنى بطرق غير مباشرة :

– يا فردوس ، واظبى على المحاضرات .

– فاتتنى محاضرة أول أمس . المواصلات عطلتنى .

– احرصى على الخروج مبكرا .

تدخلت أمى . قالت فى حدة :

– انها المرة الأولى

لاحظت توتـر أبى . طبعت قبـلة على خـده ، وقلت أطيب خاطـره :

– حاضر يا بابا .. » .

« زهرة أنت فى بستان الحيـاة ٠ أخشى عليك أن تشتهيك العيون ٠ وعطرك فواح يغرى بامتصاص الرحيق ٠ فردوس زهرة ندية ٠ من واجبى أن أراقبها ، دون أن تحس ، وأن أحميها ، بشرط ألا تشعر أنى أقيد حريتها ٠ مشكلتى معقدة ٠ لا أريـد أن أظلم فردوس ٠ لكن من يضمن لى أنها لن يضحك عليها أحد ؟ » ٠

« لابد أن أدعو سراج ٠ يجلس مع أبى ٠ هذا أفضل ٠ فى النور ٠ أبى رجل طيب ٠ حرام أن أدعه لقسوة أحاسيسه ٠ لابد من الحسم ٠ هذا سراج حبيبى ٠ شاب مهذب ٠ أعجبنى سلوكه ٠ هو الفتى الذى أعجب بشخصيتى ، مثلما أعجب بجمالى » ٠

« وافقت على حضوره ٠ لا أتصور أن أرفض طلبا لوحيدتى ٠ لم أسألها عن سبب الزيارة ٠ تظاهرت بالترحيب ، وبداخلى صوت معارض ٠ لا أدرى لماذا أتخاصم مع نفسى ؟ ٠ هل أقر حق الزمالة ؟٠ ليس فى مقدورى أن أعترض ٠ الخوف بداخلى لا أكاشف به أحدا ٠ تذكرت ما قالته لى زميلتى ، كان ذلك منذ عشرين سنة ، حين كنت فى سن ابنتى الآن ، من أنها تضطر أن تخفى أدوات زينتها من أبيها المتشدد ٠ وفى الكلية ، تهرع الى حجرة الطالبات وتتزين ٠ خفت أن تغافلنى ابنتى ٠ لهذا لا أعترض على شىء ، وأراقبها فى صمت »٠

« أهلا بسراج ٠ لعله يخطبك من أبيك ٠ لست متسرعة ٠ سأعد له غذاء يليق بنا ٠ وأنت يا محفوظ ، يجب ألا تقطب ما بين حاجبيك ، وتصدمه بقلة اكتراثك ، وصمتك الذى يفرسنى من شدة الغيظ ٠ أتمنى أن ترحب به »٠

« قدم سراج فى الموعد المحدد ٠ رحب به أبى على غير العادة ، بطريقة لم أتوقعها ٠ انخرط معه فى حديث لا ينتهى ، حتى أنى لم أجد وقتا أو فرصـة للكلام ٠ كم أنت لطيف يا أبى ! ٠ وهذه

أمى دائبة الحركة ، مرحبة به ، وأقرأ فى عينيها الحاحا صامتا بأن يفاتح أبى فى الزواج . كثيرا ما أفهمهـا أن هذه الأمـور لا تأتى بسرعة . أخذت طبق الفاكهة وهممت بالدخول ، لكنى آثرت التوقف عند الباب عندما سمعت كلاما مهموسا بينهما .

أنصت ...

- بودى أن أخطب فرودس .
- ألا ترى أنك متسرع ؟ .
- كيف ؟ .
- لابد يا بنى أن تعرف أحوالنا وظروفنا .
- سيماهم على وجوهم .
- لابد من التأنى » .

« موقف شـجاع يا أبى . هـكذا الاباء والتـروى . ولكن لاتصدمه . لابد أن تبقى خيط الأمل موصولا بيننا وبينه .

حين انتهى الهمس ، دخلت بطبق الفاكهة وجلست كأننى لم أسـمع شيئا .

- سراج فاتحنى فى الزواج .
- الرأى لك .
- ما زلتما طالبين فى الجامعة .

« ما بك يا محفوظ تؤزم الأمور . نقرأ الفاتحة لحين التخرج . أغلب الزيجات تتم بنفس الطريقة . هذا زمان غير زمانك . من يضمن عودته لطلب يدها ؟ . نعـم ، فردوس جميلة .. رائعـة الجمال .. لكنها فرصـة قد لا تتـاح لشاب تعـرفه فردوس وتقتنع به » .

« تحاشيت اللقاء به · كلما حاول الاقتراب مني ، ابتعدت · لا أعرف كيف أواجهه ؟ · خيل الى أنى سأنهار أمامه ولن أحتمل المواجهة · ماذا بعد لغة العيون التى نقلت أحاسيسنا ؟ · ولا أتصور أنى سأجد شابا يهواه قلبى غير سراج · ولكن ما الحيلة ؟ · قد يفهم من كلام أبى أنه الرفض المقنع · وقد يتهمنى بالغموض ، أو أنى أوقعه فى شرك البوح ، ثم يواجه بالرفض · خيل الى أنه سيلطمنى بكلمات قاسية مؤنبة · وأخف هذه الكلمات أنى (فتاة غامضة) · لهذا تحاشيت مواجهته · أنهمك في سماع المحاضرة · أحصن نفسى بأن أتواجد دائما مع صويحباتى ولا أفارقهن · تعمدت ألا أكون وحيدة حتى عودتى الى البيت ·

نجحت الطريقة يومين · وفى الثالث ، بينما أنا منهمكة فى سماع محاضرة — وكنت جالسة فى الصف الأول — احسست به يتسلل من مقعده فى الصف الأخير ، ويجلس بجانبى · تجمدت عروقى · تجاهلته · لكنه يعطيني ورقة مطوية وينسحب من جديد الى مقعده الخلفى تلفنبت الصعداء حين انسحب · قرأت الورقة : (أرجو أن تقابلينى فى السادسة مساء اليوم بكازينو النجمة) · عاندت نفسى وقررت أن أقابله ، مهما تكن الظروف · ليكن ما يكون· لن أخذله · كفاه ما لاقى من أبى سأتحمل · سأنصت لما يقول · · ·

ولأول مرة أكذب على أبى وأمى · قلت لهما أنى ذاهبة الى صاحبتى سعاد · وذهبت فرحة أمد له يدى ، وأجلس فى مواجهته على النضد · فاذا به يلطمنى بسؤاله ·

— هل أنت مرتبطة بشخص غيرى ؟ ·

— غير ممكن ·

— ·· ·· ··

ـ لأبى أفكاره الخاصة . سيوافق يوما ما .

ـ .. .. ..

ظل واجما . ضايقنى صمته . استفزنى صمته . طلبت منه أن ننصرف . أجابنى لطلبى . سرنا صامتين . أحسست بشىء يشدنى اليه . وبرغم ضيقى، مددت يدى أصافحه . أمسكت بيده . تشابكت أصابعنا ، بينما عجزت شفاهنا عن البوح .

وحين عدت الى البيت ، سألنى أبى :

ـ لماذا تأخرت ؟ .

حاولت أن أقنعه ، لكنى لم أتمالك . لأول مرة يا أبى ، يتلعثم القول فى لسانى . تركته وانفردت بغرفتى .. أبكى .. أراحنى البكاء .. » .

« فردوس .. يا ابنتى العزيزة .. لماذا تحادثيننى وعيناك تتحاشيان النظر الى ؟ . شىء مبهم يجعلنى لا أصدق ما قلته . أعرفك يا فردوس جيدا . ليست هذه تصرفاتك . لعلك تخفين شيئا . وهذا ما يرضينى . هل التقيت بسراج سرا ؟ » .

« يا محفوظ ، بالله عليك ، لاتسىء الظن بفردوس . ابنتنا محل ثقتنا . لا تفتح موالا نحن فى غنى عنه . ألا ترى أن هناك ألف طريقة كى تلتقى به داخل الكلية ؟ . انه زميلها ، وليس فى الأمر غرابة ان هى تحدثت معه . ألا ترى أن الأمور عادية ، وليس فى الأمر ما يريب ؟ . كما أنها المرة الأولى التى تذهب فيها الى صديقتها » .

« تلمست الطريق الى غرفة فردوس . أستجلى حقيقة الأمر بنفسى . الباب مغلق . نقرت نقرتين . ففتحت الباب وتحاشت

النظر الى · تعمدت أن أتفرس وجهها ، فاذا بآثار الدموع في عينيها · وقبل أن أتكلم ، انهارت باكية :

ـ التقيت بسراج ، ولم أذهب الى سعاد ·

ـ أعرف · قرأت هذا في عينيك ·

يبدو أنها استراحت · الحمد لله أنها أحست بالندم · لا أريدها تكذب · بادرتها :

ـ راجعت نفسي يا فردوس ، ووافقت ··

غمرت وجهي بالقبلات وأشرق وجهها البشر · ورتبت هي زيارة لسراج ·

واسترحت كثيرا ، ففردوس ما زالت على عهدي بها لاتكذب علي · هذا ما أريد ، وان استسلمت لواقع الحال ·· فلا بنتي دنياها وعالمها » ·

(مارس ١٩٨٧)

زوجتي والحلم

عاهدت نفسي ألا أخفي شيئا عن زوجتي · مصارحة أحلام طوق نجاة يبعدني عن المشاحنات والمهاترات ، وان كنت أقع فريسة الجدل فيما لا طائل من ورائه · وكثيرا ما تتهمني بأني ألف وأدور حول الموضوع ، وتطلب مني أن أكون (دوغـري) ، و « لا داعي للمراوغة يا فتحي » · وبرغم ذلك فزوجتي لطيفة المعشر ، وليس لديها سوى أفكار خائبة وأطماع متواضعة وأحلام مزعجة · وأما عن الأحلام فحدث ، فلزوجتي علاقة حميمة بالأحـلام · فما من ليـلة الا وتحلم فيها · وان أغفت عيناها قليلا ، فلا تســلم من حـلم يواتيها · وأحلامها كلها غريبة ومفزعة ، وتسقطها على واقع الحياة فتنذر بالســوء ·

حلمت بحلم وفسرته بأنه قد يموت أحد أقاربها · فأخفف عنها ، وأتوقع أن يكون المصاب من عائلتي · لكنها تقيني من القلق، بان تأخذ شجون أحلامها لجانبها فقط · وفي اليوم التالي ، تصادف أن ذبحنا بطة أتى بها أولاد عمي وهم قادمين لزيارتي من الريف · قالت مبتسمة :

ـ ها قد فسر الحلم ٠

أضحك من أعماقى وأسايرها ٠ ولكثرة أحلامها ، أداعبهـــا بقولى :

ـ صدق من سماك أحلام ٠ اسم على مسمى بصحيح ٠

وبرغم أنى أحلم مثلها ، لكنى لا أحفــل بالحلم وأتناساه ، فيضيع فى صورة ضبابية تمحوها مشــاغل الحاضر ٠ أما زوجتى « فمنامها لا يقع شىء منه على الأرض ! » ٠ لذا انشغلت بأحلامها ، حتى سلمت بأنها هواية تستهويها ! ٠

وفى يوم ، حلمت ٠ بحلم أفزعها ٠ حكتــــه لى فى الصباح وأنا أحتسى قهوتى ٠

حلمت بأخى عمرو يتعارك معها ٠

ـ اللهم اجعله خيرا ٠

قلقت زوجتى ، وقلقت معها ٠ لا تستنكف أن تحكى لى ما تذكره من الحلم ٠ آه ٠٠ أحلام تذكر كل شىء ٠ التفاصـــيل تذكـرها جيدا ٠ ذاكرتها قوية ٠ ولا أحد يباريها ٠٠ وأخى عمـرو يشـهد مشادة بينى وبينها ، هكذا الحلم ٠ زيتدخل لصالحى ٠٠ ولما يحتدم الشجار ، يشهر ســكينا حادة ٠٠ وما أن يغرز نصل السكين فى رقبتها ، حتى تستيقظ مرعوبة ٠٠٠

زعقت فى وجهها :

ـ انك تملئين بطنك بالطعام وتنامين ، وينسحب الغطاء عن جسمك فيتعرى ٠٠ لهذا تحلمين أحلاما مفزعة ٠

واسترسل متضاحكا :

ـ كما أنك زبونة لأفلام العنف الرعب ، لاتمليتها ٠

وبطدت نفسى على صد غائلة الحلم قدر ما أستطيع ! ٠

زوجتى تتوقع حدوث الشيء ، وتفسر ما يحدث بما حلمت به ، بينما تلعب المصادفات لعبتها المضحكة ، كما تقارن زوجتى أحداثا جسيمة شاهدتها فى الحلم ، بأحداث تافهة فى واقعنا ، مثل البطة التى ذبحناها وفسرت به حلما مفزعا لم يكن فيه بطة ولا أوزة ٠

أقلقنى حلمها الأخير ، ويرجع ذلك الى أنهـا عرضت على أن يتزوج عمرو أختها هند ، حينما صارحتها بأنه يبحث عن عروس ٠ وأرجأت الموضوع لحين مفاتحة أخى ٠

صدمنى عمرو برفضه ، حرصا على علاقتنا الأخوية ، وخشية أن تتحد الأختان ضدنا ، على حد قوله ، فوافقته ٠ لكنى لم أعلمها بالرفض ، وتعللت بأنى لم أفاتحـه ٠ ولما حكت حلمهـــا ، ربطت الشجار بما هو متوقع فخفت ٠ فى هذه المرة ، قد ينطبق الحلم على الواقع بصحيح ٠ وليس فيه بطة ولا أوزة نفتدى بهما رقابنا ! ٠ الهواجس التى جالت فى مخيلة زوجتى ، وهى تهيم فى دنيا ضبابية غامضة ، قد وتافقت بين موضوع محل خلاف ، وبين حلمها بعمرو يشهر سكينا حادة فى وجهها ٠

لا مناص من محاورة عمرو من جديد ٠ لا أريدها تأخذ موقفا منه ، لا سيما أنها تتحين الفرص لتفســير حلمها الأخير ٠ ولا شيء فى ذاكرتها غير عمرو وسكينة القاتلة ٠ كأن الحلم واقع نعيشه ، ويهـددها بشر مباغت ٠٠ « اللهم احفظنا من كل ســوء » ٠٠ عبارة ترددها وتعيد سرد الحـــلم غير مرة ، ثم تسألنى عن تفســيره فأضحك ٠٠

ـ أنا أجهل من دابة فى هذا · كل ما أعـــرف ، أن عمرو لا يستطيع أن يذبح فرخة ·

بحثت فى جعبتها عن تفسير للحلم · ويبدو أنها اهتدت الى شىء ما ، فسألتنى :

ـ هل حادثت أخاك فى موضوع الزواج ؟ ·
ـ لا ·· لم أحادثه ·
ـ قل أنه لم يوافق · لماذا الكذب ؟ ·
ـ لم أقل شيئا ·
ـ أعرفك جيدا · عمرو رفض ·· قلها ··
ـ أأقول شيئا لم يحدث ؟ ·
وصدقت كذبنى ··

استحثتنى لمفاتحة عمرو ، مؤكدة أنها لن تتأثر برفضه وان كانت موافقته تسعدها · لكن عمرو ظل على موقفه ، فلم أكاشفها · ودعوت الله أن تحلم حلما آخر تنشغل به ·

وحين عدت من عند أخى ، ظللت على صمتى لا أنبس بكلمة ، فضايقها صمتى · أدركت أن وراء الأكمـة ما وراءها ، ووضحت عصبيتها ونرفزتها · ولم تستنكف أن ترمينى بقذائفها الكلاميـــة التى لا تخضع لضابط أو رابط · وانما تلقى الكلام على عواهنه ، فيصيبنى منها ما يؤلمنى ويستفزنى · لكنى أصمت وأصمد · أعرف أنها نزوة · واذا ما هبت عاصفة ، فاحنى لها رأســـك · وكانت العاصفة فى هذه المرة أقوى من تحملى · رمتنى بالكذب · وانفجر بركان الغضب من داخلها :

ـ خلاص · أنا زهقت ··

جمعت ملابسها فى حقيبة . منعتها من ترك البيت . وازاء اصرارها وصراخها الذى قد يقلق الجيران ، واجهتها ببركان مماثل:

ـ أنا زهقت من النرفزة والعصبية . سأترك البيت ..

وهممت بجمع ملابسى ..

فاذا بها تنهار على الكرسى وتبكى حظها التعس . جلست الى جوارها أعالج بكاءها ، فاذا بقادم يدق الجرس فتحت الباب لأخى عمرو ، ورحبنا به مسحت زوجتى آثار الدموع وذهبت تعد أكواب العصير .. همست فى أذنى منتصرة :

ـ ها قد فسر الحلم .

ـ كيف ؟ .

ـ ألم نتشاجر فحضر أخوك فجأة ؟ .

ـ وأين السكين ؟ .

ـ المهم . الحدث وقع بصورة أو بأخرى !

ـ الحمد لله .

وتنفست الصعداء .

وبعيدا عن أخى ، صارحتها :

ـ رفض أخى الزواج من هند ، حتى لا يؤثر ذلك على حياتنا.

ـ كدت أقول نفس الشىء . هذا أفضل . لماذا أخفيت عنى؟.

لم أقل أن الحلم هو السبب . أقلقنى الحلم . وحمدت الله لأن الموضوع انتهى على خير . دخلت الغرفة أجالس عمرو ، ودخلت زوجتى فى اثرى ، تناولنا أكواب العصير وهى مبتسمة عن طيب خاطر . تبادلنا أحاديث متفرقة . فاذا بعمرو يفاجئنا بأنه أعاد التفكير وقرر أن يتزوج هند ! .

تبادلت مع زوجتى نظرات صامتـــــة · وبرغـــم المحاذير والتحفظات ، فقد وافقنا على طلبـه · وانتحيت بزوجتى جانبـــا وقلت ضاحكا :

ــ أهذا تفسير جديد للحلم ؟ ·

تضوا وجهها بالبشر والبهجة ، ولم تعلق ··

(ابريل ١٩٨٧)

طائرات ورقية

الطريق الى شاطىء البحر ، يمتد من الفيللا التى يقضون فيها عطلة الصيف ، الى حيث يعانق البحر الأفق ، وليس ثمة فاصل بين زرقة البحر وزرقة السماء ٠ الطريق أسفلتى حتى منتصفه ، ثم تكسوه الرمال الناعمة حتى وصولهم الى الشاطىء ، فتنغرز أقدامهم فى الرمال ٠ يعانى فوزى من المشى فى رمال ساخنة ٠ تحمل نيفين حقيبة بها سندوتشات وترمس شاى وزجاجة مياه ٠ ويمسك وليد يد أخته ولاء ، وما أن تطلع الى السماء ، حتى هرع الى أبيه يسأله :

ــ فى السماء طائرات كثيرة ٠

أجاب الأب متطالعا الى زحام الشماسى المتراصة :

ــ نعم ، هى كثيرة ٠

تلفت حواليه باحثا عن مؤجر الشماسى ، فلم يهتد اليه ٠ ثم فوجىء به يخف سريعا اليه ، عارضا خدماته ٠ واقتاده الى شمسية فى موقع متقدم من المياه ٠ ونقده ما طلب من أجرة ٠ انتقدته نيفين لأنه لم يساوم ٠٠

ـ انهم يغالون فى الأجرة ، كان لابد أن تنزل بالمبلغ الى الحد المعقول · أنهى الجدل بابتسامة خفيفة :

ـ الفرق بسيط ·

أعاد التلفت الى اليمين واليسار والخلف ، ثم همس فى أذن نيفين :

ـ منذ سنوات ، كان الشاطىء مقصد كل من يطلب الراحة والاستجمام ·· كانت الشماسى متناثرة ·· بين كل شمسية والمجاورة لها حوالى خمسين مترا ، ربما أكثر ·

لم تعبأ بما قال ·

ولاء ، ذات السنوات الثلاثة ، هذه رحلتها الأولى الى البحر · تتطلع عيناها الصغيرتان لأول مرة الى البحر المترامى · انكمشت فى خوف ، فاحتضنتها أمها · ابتسم الأب ، وحاول أن يحررها من حصار الأم ، فنهرته ·· « ليس لك شأن بولاء · يمكن لوليد أن ينزل معك ويستحم » · رنت ولاء الى البحر ، ثم الى أبيها ، وقالت بلثغتها الحلوة :

ـ كله ماء ··

وأشارت الى البحر بأصبعها فى شتى الاتجاهات ، حيث لم تفرق بعد بين السماء والماء · أو أن السماء اختفت وتحول كل شىء أمامها الى مياه · لهذا بدت خائفة ·

تذكر أيام الشباب ، حين كان يجىء هو وأصحابه ، فيصخبون ويملؤون الشاطىء هرجا ومرجا · تذكر أحدهم حين غطس تحت الماء وأمسك بساقيه محاولا أن يقلبه ، فاختل توازنه ، لكنه جاهد فلطمته موجة شديدة ، قذفت به فى اتجاه الشاطىء · رد على ما فعله

صاحبه ، بأن تعمد أن يضغط بيده على رأسه ، لكن صاحبه المشاكس لكمة فى صـــدره ، فلم يتمالك الا أن يقذفه بالماء بحركة صبيانية كشفت عجزه . كانت أيام ، أفاقه وليد من شروده :

ــ لماذا تكثر الطائرات على الشاطىء ؟ .

ــ ليست حقيقية .. انها طائرات ورقية .

صمت وليد يسترق السمع الى المزيد من الايضاح ..

ــ الناس يأتون بها .. أقصد الأولاد .. ويلعبون بها ..

ــ من أين يأتون بها ؟ .

ــ يشترونها .

تطلع وليد وأبوه الى الطائرات ، فلاحظا أنها تزاحم الفضاء مثلما تزدحم الأرض بالشماسى . ما زالت ولاء تلوذ بحضن أمها . حاول أن يحررها من الخوف . خلع ملابسه وبقى بالمايوه ، ثم جلس على الرمال وأمسك بالجاروف والجردل . أخذ يملأ الجردل بالرمال، ملفتـــا نظر ولاء . ضحكت نيفين . تحررت ولاء من أسار أمهـــا . طيعة لأبيها . تحاول أن تقلده ، أمسكت الرمال بكفها . وسرعان ما نفضت الرمال بكفيهـــا ، لكن الرمال ما زالت عالقـــة . أشارت نزلت من على حجرها . تقف أمام أبيها مترددة ، ثم جلست قطـــة لأبيها ، فأراها يديه وساقيه وصدره .. « الرمال تعلق بأجسامنا ، ولا ضير يا ولاء » . أعجبت باللعبة . ناولها الجاروف والجردل ، فأخذت تملأ الجردل . وكان وليـــد قد سبق أباه ونزل البحر .. والبحر عنده يعنى أمتارا قليلة على الشاطىء ، حيث لا تغطى المياه سوى نصف ساقه . لكنه يظن أنه يعوم فى قلب الأمواج ! .

تمدد فوزى مستلقيا على ظهـره ، على الرمال ، بينما نيفين تتناول سندوتشا · يخرج وليد من المياه ، يستحث أباه أن يشترى له عوامة ··

– من أين ؟ ·

فأشار الى البائع الذى يقترب من الشمسية · أشترى العوامة، فزادت جرأة وليـد فى العوم ، وأعرض عن نداءات أمه ليتنـاول طعـامه ·

يوم بديع حقا ··

كان فى أمس الحاجة الى أيام صفـاء ، يطرح هموم العمـل ومشاغل العائلة · عاد الى ذكريات حلوة قضاهـا بالاسكندرية · تتوالى السنوات ، وفى كل صيف له ذكرى على الشاطىء · منذ كان شابا · وان كان الزواج قد قيده بزوجة وأولاد ، الا أن القيد يشكل بصورة أخرى سعادة من نوع جديد ، تلك السعادة يقرؤها فى عيون نيفين ووليد وولاء · أفاقه وليد من شروده ، حين سأل :

– أريد أن أشترى طائرة ·

رنا الى عينيه المتشبثتين ، ولكن أنى له البائع ؟ ·

– فى المساء ، أشترى لك واحدة ·

– قد رأيت البائع ·

– ننتظر الى أن يعود ·

والتزم وليد الصمت ·

شوهد فى السماء ست طائرات هليكوبتر ، طائرات حقيقية ، على ارتفاع منخفض من سطح البحر · شرح لوليد الفرق بين الطائرة الحقيقية والورقيـة · الحجم أكبر بكثير جدا ، وبداخلهـا قائد ، وتستطيع أن ترتفع الى عنان السماء ·

سألت ولاء :

ــ هل يمكن أن تصطدم الهليكوبتر بالطائرة الورقية ؟ •

ابتسم الأب ، ولم يعقب ، بينما قالت نيفين :

ــ يبدو أنها تحوم على الشاطىء لمراقبته •

ولم يعقب أحد على كلامها •

نبه وليد أباه الى أن بائع الطائرات يقترب من الشمسية • نظر فوزى الى زوجته ، فقالت بحدة مباغتة :

ــ أنت حر مع أولادك ••

نادى على البائع واشترى واحدة • أراد أن يعلم ابنه كيف يلعب بها ، نبهه الى ضرورة أن يمسك بمقبض الخيط جيدا ، والا ضاعت الطائرة • وما أن أطلقها ، حتى ارتفعت عاليا ، ظل ممسكا بالخيط ، وقد أحس بطرافة اللعبة • مضت ثلاثون سنة وأكثر ، منذ كان يصنع الطائرات ويطلقها فى الفضاء • لاحظ أن طائرته أرتفعت أكثر من كل الطائرات • يستحث وليد أباه كى يعطيه الخيط ، لكنه مازال منتشيا باللعبة ، وقد أحس الزمن يعود القهقرى • نهرته زوجته :

ــ يارجل • اعط الطائرة للولد •

تنبه فوزى • ناولها لأبنه وهو ينصحه بأن يمسك بالخيط جيدا • أما ولاء فقد ركبها العناد ، وطلبت طائرة لها • فعملت نيفين على تطييب خاطرها ، واقناعها بأن اللعبة ليست للبنات • ينفلت الخيط سهوا من بين أصابع وليد • وطارت الطائرة بعيدا : والأب يجرى مسلطا نظراته على طرف الخيط الذى يجرى بسرعة جنونية • ووليد يقتفى أثر أبيه ،حتى شبك الخيط الأبيض فى فرع شجرة ،

وما زالت الطائرة فى الجو محتفظة بتوازنها . تطوع شاب للصعود الى الشجرة ليخلص الخيط ويناوله لفوزى . يشكره ويرجع الى الشمسية ، لكن الطائرة العنيدة تصطدم ببيت صغير فتقع فى فنائه. ويقف السور العالى حائلا. يتطوع شاب ثانى فيرتقى السور .

يعود الأب وولده الى الشمسية فرحين . لكن الطائرة أصابها تلف ما ، ولم تعد تطير كسابق عهدها . واكتفى وليد بأمتار قليلة ترتفعها الطائرة فوق مستوى رأسه .

تعكر مزاج فوزى . لم يفلح كوب الشاى فى اعادة الانسجام اليه . تلفت حواليه، فلمح رجلا فى مثل سنه يلعب بطائرة ورقية !. دهش . اذن هى لعبة الكبار أيضا . لفت نظر زوجته ، فاستاءت ولم تعقب . نهض عن كرسيه وأخذ الطائرة من ابنه ، تململ الطفل. لكنه صمت حين فوجىء بتشابك خيطها مع خيط أخرى . الرجل يضحك لفوزى — ويعمل على تخليص الخيط وفض التشابك ! . مع أعطاء توجيهات لفوزى كى لا يتكرر منه خطأ ! .

— أعط الطائرة للولد .

أجاب زوجته لطلبها وجلس على الكرسى يتناول سندوتشا ثم كوب شاى ، وطفق يداعب ولاء . جلس معها على الرمل ، يبنى لها هرما كبيرا . فأخذت تقلده قائلة أنها ستبنى هرما أكبر منه . لكن هرمها مع كل المجهود الذى بذلته ، كان صغيرا . ما زالت نيفين مبقية على تقطيبة وجهها ، ولم تفلح أنسام الشاطىء فى تغيير طبيعتها . بينما أزاح زوجها همومه خلف ظهره ، مستقبلا اليوم بروح جديدة . وان كانت نيفين تحس بحسد ، وتتمنى أن تلعب وتمرح . ولم تشأ أن تظهر ما تبطن . واكتفت بوشاح (الجد) على وجهها . فما زالت مقيمة بكرسيها لا تبرحه ، مكتفية بتبادل الأحاديث ، ومن حين لآخر ، تتناول سندوتشا أو كوب شاى .

وبينا كان الأب يداعب ابنته ويبنى لها هرما ثانيا ، لمح البائع فنادى عليه وابتاع طائرة ، بعد أن ساومه واشتراها بسعر أقل · سألت نيفين :

– لمن ؟ ·

– لى ··

ضحكت · لم يبال · أكتشف فوزى أن السماء قد أمتلأت بالطائرات الورقية ، وأن الشاطىء ازدحم بعشرات الرجال والسيدات يلعبون بالطائرات ، الى جانب عشرات من الأولاد والبنات · تهللت أساريره ، اذ تحرر من أسار الزمن · لم يعد ذلك الرجل الذى تجاوز الأربعين عاما ، أو أن الشاطىء لا يعترف بمجتمع للصغار وآخر للكبار · نشأت صداقة عابرة بين فوزى وجاره ، بينما وليد يحذره من تشابك الطائرتين ·

راقبت نيفين المشهد ، وهى تمصمص شفتيها · وما زالت التقطيبة تطل من بين حاجبيها ·

(يونيو ١٩٨٧)

أول مشوار

أوقف عربته فى الطابور · ترتيبها الخامس · بدت كعروس ليلة زفافها · تلقى التهانى ، من زملائه · تدخل عربتة الخدمة لأول مرة · وانتهى تعامله مع عزت فريد ، صاحب أسطول العربات التى تجرى فى شوارع العاصمة · أصبح اليوم حرا ، مستقلا فى عمله · وما كان له بلوغ المراد ، لولا حالة التقشف التى ألزم نفسه بها ، ولولا تشجيع صابرين ·

يهمس زميل فى أذنه :

ـ والله صبرت ، ونلت ··

ـ شد حيلك يا عبد الله ، واشتر واحدة ··

ـ من أين يا مصطفى ؟ ·

ويقبل يده اليمنى ظهرا لباطن ، ويردف :

ـ الحمد لله ·· مستورة ·· القرش يسد طلبات الأولاد بالكاد ·

ينصحه مصطفى :

ـ لو تقلل من التدخين ٠

يستشار عبد الله ٠٠

ـ ياليتها مشكلة دخان ٠٠ الأفيون حكاية ٠٠ نهايتـه ٠٠ تعال نشرب الشاى ، لحد دورنا يجيء ٠

كان مصطفى فى أحسن حالاته ، اذ يجنى ثمرة كده ٠ وطفق يحدث زميلة عن حبه لصابرين ٠ قال أنها بنت حظ ، لهذا كتبت اسمها على عربته الجديدة ٠ ولولا تشجيعها ، ما نال مراده ٠ يذهب اليها كل يوم بالمكسب ، يدخره معها بعد أن يقتطع مصروف غده ٠ واستطاع أخيرا أن يدفع مقدم شراء العربة ، ومن المكسب سيدفع أقساطها ، وكما يقول المثل : (من قرنه ، ادهن له) ٠

ينادى عليه فاروق ، بصوته الأجش :

ـ يالله يا سيدى ، دورك جاء ٠

نقده رسم المرور ، وجلس الى مقعد القيادة ٠ ألقى نظرة على الركاب ، ثم قال لفاروق :

ـ ناقص نفر فى الكرسى الأخير ٠

احتد راكب :

ـ يعنى لازم ٠ الكرسى لثلاثة ، فأين يقعد الرابع ؟ ٠

يرد عليه فاروق فى غلظة :

ـ كذا نظامنا يا أفندى ٠

أحس مصطفى بضيق من الركاب ٠ يضحى بأجر واحد ، لايهم ، كى يبدأ مشواره الأول دون منغصات ٠ وتفاءل خيرا ٠ أدار كاسيت

العربة ، فيشجيه صوت مطرب شعبى بمواويل الصبر والكفاح ، وعشق الصبايا . يخايله طيف صابرين ، الوجه المشرق المضىء . تذكر ما قاله عبد الله بأن الحب يموت اذا لم يكن معك مال . قول غير صحيح ، لأنه ما كان يستطيع عمل شىء لولا حبه لصابرين . الحب يصنع المعجزات . صوت المطرب يردد : أنا غريب فى دنيتى . الأغنيــة تمش شغاف قلبه ، وأنات حزن يتجاوب معهــا .. حيث يتذكر عثراته فى الأيام الخوالى ، والألم الغائر فى شعاب نفسه . يتذكر تعلمه القيادة ، بعد فشله فى دراسته ، وتنقلة فى العمل لدى معلمين وتجار . ذاق مرارة العمل مع صاحب مال ، يعطيه أجرة كأنه يقطع من لحمه . يفيقه صوت راكب عجوز :

ـ يا أسطى ، أليس عندك أغنية غيرها ؟ . هذا ندب ونواح ، وليس غناء ! .

يصدمه الصوت ، يزعجه ، يغلق الكاسيت فى الحال ارضاء لمزاج الراكب . ويسدل الستار على طيف الماضى القريب . اليوم يبدأ مرحلة جديدة من حياته ، وعليه أن يتحلى بالصبر والتفاءل .

الجالس فى المقعد الخلفى ، ينقده أجر الركاب :

ـ جنيهان وريال ..

أحد الجنيهين ممزق ، يعيده الى صاحبه ، فيأتيه صوته محتدا :

ـ الجنيه كويس يا هندسة ..

ينهى المسألة ، ويطوى الأوراق قانعا ، شاكرا ربه .

لكن مضايقات الركاب لا تنتهى . فهذا راكب يزعق غاضبا لأن مكان نزوله قد فات !.

ـ ألم أقل لك ..

لا يرد ، ويكتفى بالصمت . ينزل الراكب ومازال يردد كلماته الغضبى .

يواصل السير ، وقد استفزه سلوك الركاب . كاد يصطدم بعربة أمامه ، لولا ستر الله ، وقف فى اللحظة الحرجة . أصابة بعربته . أهكذا من أول مشوار ؟ سائق العربة الأخرى ، يعاين عربة مصطفى محاولا تخطئته . ينهى النقاش فى الحال . ويمضى لحال سبيله .

يبدو أن البدايات غير مشجعة . ولكن صورة صابرين ، تزهو فى مخيلته ، وضاءة الجبين كثيرا ما تقول له :

- تجمل بالصبر .

كلمة حلوة تشيع البهجة .

قدر التلفيات بمائة جنية .. فانوس أمامى وسمكرة .. تنازل عن الجدل ، ولم يطلب تعويضا . هذا أسلوبه فى تناول الأمور . قد علمته أمه من الصغر ألا يقبل العوض . عند الله العوض . وما حياته سوى سلسلة من التنازلات ، يقدمها عن طيب خاطر . كثيرا ما يسمع من زملائه السائقين :

- أنت طيب أكثر من اللازم .

وبداخله صوت يغمغم :

« أنت غريب فى هذا العالم »

لا . ليس غريبا بل يسحق أى قيد يحبس حريته فى الاختيار كما أنه يتنازل عن كل ما هو مادى ، فى سبيل أن يعيش عزيزا غيرمهان . وكثيرا ما يترك صاحب مال ، ويعمل عند غيره . تنقل

فى عمله لدى أناس كثيرين . صادفته قلوب غلاظ قاسية ، تعبد المال . أستغفر الله .

وصل الى نهاية المشوار :

ـ آخر الخط ، يا أفندية ..

نزل الركاب ، وتسمر مكانه فى مقعد القيادة . يتأمل زحام الوجوه العابرة فى الطرقات . وتزهو أمامه صورة فريدة لصابرين. تهون عليه وعثاء الطريق . ردد بصوت خفيض :

ـ آكل العيش حلو ، بالحلال .

كلمات حلوة تقولها صابرين ، الفتاة التى أحبها ، واشتق اسمها من (الصبر) . لكن دمعة ألم انبجست من عينه ، تزيح من صدرة هما ما . ثم يدير مقود العربة ، بادئا مشوارة الثانى . وما أكثر المشاوير التى سوف يقطعها ، متحليا ـ رغم كل شيء ـ بالصبر الجميل .

(نوفمبر ١٩٨٧)

دعوى نسب

قصد أول مقهى صادفه . انتقى كرسيا قابعا فى ركن نـاء ، بعيدا عن لاعبى النرد ومدخنى النرجيلة . وضع الملف على الطاولة ، وطالع عناوين الجريدة . لا جديد تحت الشمس ، سوى القتـــل والعنف والارهاب ، فى كل الدنيا . طوى الجريدة واسترسل فى هواجس خفية . بدا فيلسوفا يتناول أبسط الأشياء بامعان وتدبر . أشعل لفافة دخان مع فنجان القهوة ، وراجع الأوراق ورقة ورقة . تأكد أنها كاملة ، كطلب محاميه . استعاد ما قاله المحامى الأنيق ، عن الاجراءات التى سيتبعها .. سيرفع دعوى نسب ، قضية ادارية مضمونة ، أو هى اجراء شكلى يحكم فيه القاضى بالنسب الصحيح .

تجاوز الأربعين ، تخرج فى الجامعة وعمل وتزوج وأنجب ، ثم يفاجأ بما لا يرد فى حسبانه .. حين أخطرته ادارة شئون العاملين بضرورة احضـــار مستخرج رسمى لشهـــادة الميلاد ، موضحا بها اسم الأم ، لأن الاسم غير واضح بالشهادة البالية .

فوجىء بموظف السجل يثبت اسم أمه بالمستخرج : بدرية على ناصف . يؤكد له أن اسمها : شفيقة أحمد حسنين . ولكن ..

لا حياة لمن تنادى ٠٠ يشخص الى وجهه مستغربا ٠ أيصدقه ويكذب ما هو مكتوب ؟ ٠٠

ـ أنا أعلم بالحقيقة من أوراقك الباردة ٠

ـ قد تكون صادقا ، ولكنى أؤدى واجبى من واقع الأوراق ٠٠

أوراق ٠٠ أوراق ٠٠ أوراق ٠٠

أنهى الموقف قائلا للموظف بتهكم :

ـ سأحضر أمى العجوز لتقول لك أن اسمها شفيقة أحمـــد حسنين ٠

ابتسم الموظف فى وقار :

ـ لا تحرجنى ٠ الاسم كله غير مطابق ٠

كأنه فى حلم مزعج ، تمنى أن يفيق منه ٠ لا ٠ قد وقع فى مأزق مضحك ٠ أتستطيع أيها الموظف أن تلغى أحاسيس أربعـين سنة مضت ؟ ٠ انها أمى بحلمهـا وشحمهـا ، حملتنى وأرضعتنى وربتنى ٠ كافحت مع أبى حتى صرت رجلا ، لا ينكر فضل أبويه ٠ وتمنى أن يطبق بكفيه حول رقبة الموظف وينهى المسألة ٠٠

ـ أرينى الدفتر ٠٠

حملق فى سطور مكتوبة باهمال ، واطراف الأوراق قرضهـا فار متلصص على أحوال الناس ، فعبث بالنسب والتاريخ والعنوان ، وقرض ما لا يعجبه منها ! ٠ لبث أصبعه على اسمه ، ثم حرك أصبعه المرتعشة على نفس السطر ، فقرأ الاسم الخطأ لأمه ٠٠ (بدرية على ناصف) ٠٠ من بدرية ؟ ٠٠ « أتزوجتها فى السر ؟! ٠ ما حكايتك يا أبى ؟ » ٠

رجع الى أبيه وخيل اليه أنه يعيش أحداث فيلم مصرى قديم ، وتوقـع أن تبـوح أمـه بالسر ، وتصدمه بأنهـا ليسـت أمـه التى أنجبته ! ٠

أفاقه الرجل الجالس بجانبه ؛

ــ لو سمحت الجريدة ٠

ــ تفضل ٠٠

وعاد الى شروده ٠ ألهذه الورقة قيمة كبيرة ؟ ٠ عمل بالمصلحة قرابة العشرين عاما ٠ أيضيع كفاح العمر من أجل ورقة ناقصة ! ٠ عاد الى أمه وردد على مسامعها الاسم الجديد : بدرية على ناصف ٠٠

ــ تذكرى يا أمى ٠٠ تذكرى جيدا ٠٠

رجعت الأم الى عشرين سنة خلت من عمرها ، منذ أربعين عاما ، ربما أكثر ٠٠ حين كانت تعيش فى بيت العائلة القديم ، فى زقاق ضيق بحى بولاق ٠٠

ــ آه تذكرت يا ابنى ، بدرية هذه جارتنا ٠ وضعت وليدهـا معى فى نفس اليوم ، لكنه لم يعش أسبوعا ٠ هل كتب اسمهـا بدل اسمى ؟ ٠

صاح فى لهفة :

ــ وجدتها ٠٠

ورجع فرحا الى الموظف جامد الملامح :

ــ وجدت حلا لمشكلتى ، فمنذ أربعين سنة ٠٠٠

ــ دنيا ٠٠ من يذكر حال الدنيا من أربعين سنة ؟ ٠

صاح محتدا :

ـ الأمر بالغ الحساسية ، أرجو أن تسمعنى ٠٠ منذ أربعين سنة ، أخطأ الموظف وكتب اسم سيدة أخرى ٠

ابتسم مشفقا ، وقال ينهى المسألة ٠

ـ التعليمات صريحة ، بألا أجور بقلمى على السجل ٠ انه وثيقة هامة لا أستطيع أن أراجع فيها شيئا ٠

ـ مـاذا ؟ ٠ وثيقة ! ٠ عجبا لك ٠٠ أتفرض على أما لم تلدنى ؟! ٠

تذكر حين جالس أباه ذات مساء ، وتوسل اليه أن يصارحه بالحقيقة ٠ نظرات شك فى الابن لأبيه :

ـ يجب أن تصارحنى ٠٠ من بدرية ؟ ٠

ـ أتحاكمنى ؟ ٠

ثم استرسل نافضا التراب عن صفحات الماضى البعيد :

ـ بدرية كانت جارتنا ٠٠

مازال اسم بدرية محفورا فى وجدان أبى العجوز ، وليس مجرد اسم كتب خطأ وسهوا ٠

ـ لا داعى ياأبى ٠ انه لا يقر بشهادة الشهود ٠ انه أشبه بمومياء من مومياوات الفراعين ، ساكن فى مكانه لا يغير من الأمر شيئا ٠ وسجله أشبه بأوراق بردى خلفها قدماء المصريين ، ثم آلت اليه ، فاحتفظ بها وسط هالة من التبجيل والتقديس ٠

الجلس بجانبه ، أفاقه من شروده يناوله الجريدة شاكرا ٠ حمل الملف والجريدة ، قاصدا محاميه ٠ تسلم منه الأوراق وطمأنه الى

أنها قضية عادية ، ينبغى ألا يشغل نفسه بها . ومن خلال نظارته السميكة ، قال وبين يديه التوكيل :

ـ مادام التوكيل معى ، لا تشغل نفسك بشىء . اجراءات عادية نتابعها نحن المحامون ..

بدأ القلق فى نظرات عينيه ، داعبه المحامى متظرفا :

ـ لماذا سموك « المنسى » ؟ .

فرد دعابته فى ملل :

ـ هذا قدرى ، أن أكون منسيا .

وهرول الى الطريق عائدا الى بيته . تسأله الزوجة متعجلة النتائج ، فلم تجد لديه ما يطمئنها بأن الموضوع انتهى . انتقلت بحديثها الى مصاريف الأولاد وعدم اطاعتهم لما تقول . فطلب منها أن ترجىء مثل هذه الأمور حتى الصباح. لكن النوم لم يزر عينيه . ظل مؤرق الخاطر ، مشتعل الوجدان . انسحق الى سنى الماضى البعيدة . ودب الشك فى قلبه ، حتى نادرة المحامى صار لها معنى يلح على ذهنه . وفى جوف الظلام ، حيث تغط الزوجة فى نومها لا تحرك ساكنا ، اتسعت حدقتا عينيه كأنها تتلمس ملامح صورة للست بدرية .. من تكون ؟ . فرسم خياله أشباحا هلامية ، وحلقات ضوء تتسع وتصغر . أتعبه التحديق فأغمض عينيه ، فاذا بالأشباح وحلقات الضوء مازالت ترتسم فى خاطره . انزعج وقضى ليلته حتى الفجر ينفث دخان اللفائف فى الصالة حتى أعياه السهر ، فنام على كرسيه مرهقا مكدودا ، حتى أفاقه صوت المؤذن فجرا . وبعد أن صلى ، اعتزم أن ينفذ فكرة راودته . أن يتجه الى الحى القديم ، الى البيت الذى ولد فيه ببولاق . والمسافة من (ميت عقبة) الى (بولاق) ليست بعيدة . اجتازت السيارة نهر النيل المتفرع الى

فرعين بينهما جزيرة (الزمالك) • نزل عند مسجد السلطـــان (أبى العلاء) • سار على قدميه يسارا حيث شارع (بولاق الجديد)، ثم (درب نصر) ، أخيرا وصل الى (درب شماخ) ، حيث البيت العريق المبنى منذ أكثر من ستين عاما • لا أحد يعرفه • خطاه خطى غريب ! • رغم أنه عاش أحلى سنوات الطفولة والصبا هنا •

على الناصية ، كان يوجد محل لبيع عيدان القصب • وكان يشترى من البائعة قطعة ذات عقلتين أو ثلاثة • تحـول المحـل الى معرض يضم العطور والخردوات والمعلبات ولفائف الدخان وأصناف شتى • وعند وصوله الى بيت الأسرة القـديم ، تردد فى الدخـول يقصد من ؟ • من يعرفه هنا ؟ • صوت واهن كأنه صادر من جب عميق :

– أهلا يا منسى •

اتجه الى مصدر الصوت ، فاذا بعجـوز أناخ عليهـــا الدهـر بكلكله • شخص اليها مبتسما ابتسامة صفراء لا تنبىء عن شىء ••

– ألا تعرفنى ؟ •

طيب خاطرها :

– الملامح أذكرها •

– تفضل يابنى •

دخل حجرتها أو قبوها المظلم • ردت على تساؤله الأخرس :

– أسكن هنا من زمن ، وحضرت ولادتك •

انتفض كمن لدغته عقرب • هـا هى تبـدأ بيت القصـيد • نهضت تعد قدح الشاى • انها تعدت السبعين • أشفق عليهـــا ، وان تركها تقـــوم بالواجب • تملى الحجـرة الأرضـية الرطبـة • سألت :

ـ كيف حال والدتك ووالدك ؟ • بخير ؟ • والنبى تبعث لهما بسلامى •

وردت على صمته ، بكلمات قاطعة كأنها تجيب على أسئلة لم يقلها :

ـ أظنك لا تعرفنى ، ونسيت اسمى• ألا تذكر (أم حمامة) ؟•

ـ أهلا يا حاجة •• ربنا يطيل عمرك •

ـ أكثر من هذا ، غير ممكن • الوحدة مريرة ياابنى • فقدت زوجى من سنين ، وبناتى تزوجن وعشن فى شقق بعيدة • ابنى سامى يسكن معى فى نفس البيت ، ويسأل عنى من وقت لآخر ، وان كنت أسمع صوت رجله وهو يمر من أمام حجرتى ، متحاشيا السؤال • المهم يا منسى •• يا رجل يا أمير •• سامى يسأل عنى كل جمعة •

كاد ينسى ما جاء من أجله • ها هى أم حمامة تكاد تجيب على سؤاله المحير ، فقد حضرت ولادته •

ـ أين تعيش بدرية ؟ •

ـ بدرية ؟ •

صدمه قولها ، ثم صمتها المغلف بالغموض • كأنه يسقط من حالق • أمسك بقدح الشاى وصبه فى جوفه • وتطساعك متصنعا اللامبالاة •

ـ هذا الاسم أذكره • أصل يا حاجة والدى يردده حين نذكر البيت القديم •

ـ ربنا يطيل عمره •

ولاذت بالصمت · الذاكرة تعييها · لم تعد تذكر التفاصيل · وأصابتها نوبة (توهان) فنست الماضى · هكذا خيل اليه ، حينما غيرت الموضوع :

ــ أين تعمل ؟ · وكيف حال الأولاد ؟ ·

رد باجابات رتيبة · ثم عاد يسأل مستفزا اياها كى تتذكر :

ــ ألا تذكرين بدرية على ناصف ، وأنا يا حاجة أذكرها وأعرفها ؟! ·

ــ نعم تذكرتها · كانت ساكنة هنا مع أسرتها · والدها رجل طيب ·

استرجعت العجوز شريط الماضى · التزمت الصمت لحظات ، بينما يطوف بخيال المنسى شريط آخر حول قصة اختلقها ·· من أن أباه كان على علاقة ببدرية ، وكان هو الثمرة ·· ثم اختفت بدرية · وبما قتلها أبوها ، أو تزوجها أبوه فى السر ليكفر عن خطيئته ·· ثم طلقها ، وتزوج من جارته الثانية شفيقة ! · لابد أن أباه يغالط فى رواية الحقيقة ، وأمه اعتزمت من زمن أن تقر ببنوته، حفاظا على ··· وصدق خياله ·· وتجسد حقيقة ماثلة · تعجل الأمور ، وصدق هو اجسه ، فسأل العجوز :

ــ ألا تعرفين أين تسكن ؟ ·

ــ تتحدث عن من ؟ ·

يبدو أن العجوز قد أعياها الحديث ، ولا تقوى على تذكر أية تفاصيل ! ·

ــ عن بدرية ·· بدرية على ناصف ····

ـ آه ٠٠ بنت علي ناصف ، الرجل الطيب ٠ تزوجها فلاح قريب لها ، وعاشت هنا سنة أو سنتين ثم سافرت معه الى دمنهور ٠ ولم تعد تجيء الى هنا ٠ لم أرها الا حين مات المرحوم والدها ٠٠ كان ذلك من عشرين سنة ! ٠

طال حبل الصمت الممدود بينه وبين أم حمامة ٠ يبدو أن العجوز ملت الحديث ، فلاطفها :

ـ أرجو أن تبعثي بسلامي الى ابنك سامي ٠ لو كان الوقت متاحا لزرته ٠

ـ كيف حال الست والدتك ؟ ٠

ـ الحمد لله ٠ أتعرفينها ؟ ٠

استنفرها السؤال ، فزعقت فيه :

ـ أتظنني نسيت ٠ ما زلت بخير يا منسى ٠ الحمد لله ٠٠ الست أنت ابن شفيقة ؟ ٠

فرح بالاجابة التي ردت الروح الهائمة الى جسده ٠٠

ـ نعم ٠٠ نعم ٠٠ عفوا يا حاجة ٠ أقصد المزاح معك ٠ ان شاء الله أزورك مرة ثانية ومعي زوجتي والأولاد والحاجة الوالدة ٠

ـ أهلا بهم ٠

ـ سلام عليكم ٠

وقفل عائدا الى سكنه ، بعد أن حصل على اجابة أراحته ، وان لم تكن شافية ٠ لكن العجوز أكدت له أنه ابن شفيقة ٠ هذا يكفيه ، وليمح من الذاكرة المكدودة ما شاب خياله من اتهام لأبيه ، وتمزق

وجدانه بين سيدة ربته هى أمه ، وبين سيدة لا يعرف حتى شكلها أو ملامحها ‥ يتردد بين جوانحه شك فى أن تكون أمه التى ولدته !

انطلق من قبو العجوز المظلم المسمى حجرة الى النسيم البارد ٠ وتنفس الصعداء ٠ لقد اطمأن الخاطر بعض الشىء ٠ ولابد من مواجهة أمه وأبيه ، وجها لوجه ٠ انه مجرد باحث عن الحقيقة ٠ أم يترك نفسه فريسة الوهم ؟ ٠ ليدع المحامى يستكمل اجراءاته ، ويستصدر حكما اداريا بصحة النسب ! ٠ لكن الواقع الذى لا يزيف ‥ لابد أن يصل اليه ، مهما كلفه من كد وتعب ٠

ذهب الى بيت العائلة ٠ وجلس الى أبيه وأمه ، يسترضيهما ويحكى لهما ما تم من اجراءات لتصحيح الاسم ، وما قاله المحامى ٠ وأغفل ذكر شىء عن رحلته الى بولاق ، الحى القديم ٠ وتفكه فى القول مع أمه ‥

ـ أبوح لك بسر قاله أبى ذات مرة ‥ انه كان يحب بدوية ‥

مصمصت الأم شفتيها وهى تسترجع ذكريات الماضى ، وقالت

ـ ولدتك فى ليلة شتائية أرعدت فيها السماء وأبرقت ‥

ما أروع الميلاد يا أمى ، حين تؤكدين على حملك لى داخل رحمك ٠

تنفس الصعداء ٠ لم يخالجه شك فى كلمات عفوية تنطقها أمه ٠

هدأ خاطره واستراح ٠ سكنت زوابع الشك التى أهاجت نفسه ، وعاش أيامه منصرفا الى أولاده وطلبات زوجته ، وانغطس فى عمله ٠

وبعد أسابيع قليلة ، اتصل بمحاميه ليعـرف منـه أخبـــار القضية ..

ـ صدر حكم بتشكيل لجنة ثلاثية .

ـ لجنة ! ..

قص عليه حديث (أم حمامة) وحديث أمه وأبيه ، وقال أنها أحاديث قطعية تدعم القضية . لكن المحامى لم يهتم بتفاصيل ما قال ، وأجابه بأنه سيرفع دعوى يسأل فيها المحكمة : متى يتم تشكيـــل اللجنة ؟ . وطمأنه خيرا . مجرد اجراءات قضائية تستغرق وقتا ، لكن المشكلة ستحل باذن الله .

وطلب منه ألا يشغل نفسه بهذا الموضوع ! .

(فبراير ١٩٨٨)

يوبيل فضى

يوافق اليوم الذكرى الخامسة والعشرين لنشر أول قصة لى . يوم لا ينسى . غمرتنى سعادة لا توصف . اشتريت عشرين نسخة من المجلة . قرأت القصة مرات ومرات ، وأخذت أعد سطورهـا وأتأمل العنوان المكتوب بخط جذاب ، ولو أن اسمى كتب بحروف منمنمة صغيرة . لا بأس .

ربع قرن مضى والقلم ما زال فى يدى . لم تكل يدى . حرصت على قلمى حرص الجندى على مدفعه . كلانا يقاتل .

ما أسرع مر السنين . قد نشرت مئات القصص ، وحظى فى نشر الكتب قليل . واستنى زوجتى بنظرة مشيعة بالأسى . سؤال مبهم فى عينيها : « وماذا جنيت ؟ » .

لم تشأ أن تبوح بأساها . هى غير مستعدة لخوض معركة كلامية معى ، وأعلنت بلهجة قاطعة :

ـ ستتفلسف بكلامك عن القيم الفنية والجمالية ، وعن القيم النبيلة والغايات العظيمة . أعرف ردودك ، لهذا لا أسأل .

تبتسم وهى تمد يدها الحانية بقدح الشاى :

– ولكنك يا عزيزى تتعبنى بهذا الكم الهائل من الكتب والمجلات ، المتناثرة هنا وهناك ، فى فوضى لا مثيل لها ·

أبتسم دون أن أرد ·

أمسكت جريدة الصباح وطالعت صفحة الأدب ، شيء طبيعى ألا يكون لى ذكر ، ولو ··· مجرد ذكر الاسم ··· ذكرت ما قاله أديب مشهور يصغرنى سنا وتجربة وانتاجا :

– أنت لا تعرف أصول اللعبة ··

– لعبة ! · هل دخلت ساحة ملعب ، حين مارست دورى كاديب ؟ ·

– لا يا أستاذ ·· ولكن الدنيا مصالح ياسى صالح ! ·

– يعنى ···

– يعنى هات وخذ · تبادل المنفعة يعنى ·

أفقت من شرودى ، على صورة بارزة نشرت لصعلوك الأدب ، هذا الذى أتقن أصول اللعب والمشاكسة ، وحديث صحفى معه ، بمناسبة صدور أول مجموعة قصصية مليئة بالأخطاء والسذاجة · يبدو أن الصحفى لم يقرأ ، وأن ···

زوجتى اقتحمت مجلسى ، لتحدثنى عن ابننا أسامة ، ناصحة بأن أتفرغ له ساعة كل يوم ، وأراجع معه دروس الثانوى · وفاجأنا رنين الهاتف ، وكان المتحدث هذا الأديب يسأل عن رأيى فيما أدلى به من تصريحات ··

– عظيم ·· عظيم ·· قد شغل حديثك مساحة كبيرة من الصفحة ··

فقال أنه عاتب الصحفى لأنه أغفل نصف حديثه ! .

فى صباى ، أحببت الكتاب ، فانكببت على القراءة . وبدأ اليراع الأخضر يسجل الخواطر والأحاسيس . انفعلت بقضايا عصرى .. منذ هجموا علينا عام ١٩٥٦ ، فتأججت مشاعرى ، وكتبت أقاصيص تدور حول البطولات والانتصارات . وسرى تيار جارف ينادى بالوحدة ، ثم أتانا عام الانكسار والانحسار والاحباط ، وتلونت قصصى بلون شديد القتامة ، وبدأ الرمز يلعب دورا فى قصصى . وعشت بأعصاب محترقة حرب الاستنزاف ، ثم حرب أكتوبر ، فانطلق السلام . ضج صدرى بأحاسيس متباينة ، وكانت قصصى تاريخا لقضايا عاصرتها ، وحياة عشتها ، وأناس تعاملت معهم .

مررت سريعا على عناوين القصص ، فى زهو واعجاب .. حصاد عمر .. أو هو العمر كله .. فما أطولها رحلة ؟ .

قد يطرق صحفى باب بيتى . انها مناسبة تستحق الاشادة والذكر . ولكن يبدو أن جميع الصحفيين مشغولون جدا هذا اليوم ، لهذا فهم جميعا يعتذرون لشخصى ، مع تقديرهم البالغ لى ! .

جالست زوجتى . لا أدرى كيف نجحت فى تخليصها من شغل البيت ، لتتفضل مشكورة بالجلوس معى .. المهم .. ارتضت أن تؤنس وحدتى . سألتها :

ـ ما أحسن قصة أعجبتك ؟ .

ـ كل قصصك حلوة .

ـ أنت تجاملين زوجك .

— لاحظت أن قصصك بعد الزواج ، اتخذت مسارا عقلانيا ، ليس فيه مغامرة أو طيش أو مراهقة ·

— هذا كلام ستات ·

— أتظنني ناقدة ؟ ·

— أنت عيني الناقدة ·

— اذن ، سأتقمص دور الصحفية ، وأسألك ، وأرجو أن تجيبني من غير لف ولا دوران ·

— عدنا الى الشـجار ·· ما الداعي الى أن تحشري هـــذا التعبير ؟ · منذ تزوجتك يا سهام وأنت تظنين أني أضحك عليك ، باللف والدوران ! · مضى من عمر الزواج عشرون سنة ، وما زلت توجعين أذني بهذا القول ·

— خرجنا عن الموضوع ·

— اسألي كما شئت ·

وانهالت علي بأسئلة شتى ··

★ حدثنا عن مؤلفاتك ·

★ لماذا تصور المرأة هذا التصوير الجنسي الصارخ ؟ ودائما تحفل بجسدها ··

باستدارة النهدين ، والعينين النجلاوين ، والشـفتين المكتنزتين ، وعفرتي الابطين ، والأرداف ، وما الى ذلك · ما من امرأة ذكرتها الا وتحدثت عن مفاتنها ·

★ ما رأيك فى أدب الشباب ؟ ٠

★ ما رأيك فى الحب ؟ ٠ احك لقرائك عن حبك الأول ! ٠

وهكذا قضيت الأمسية فى حديث ممتع تخلله شجار من حين لآخر سببه أن سهام تريد أن تعرف تفصيلا من هن كن حبيباتى ، قبل الزواج وبعده ٠ ولم تفلح اجاباتى باقناعها بشىء ، لأن قصصى هى الدليل ٠ ولما رددتها بأن كل بناء حواء اللاتى ورد ذكرهن فى قصصى من بنات أفكارى وخيالى ، وليس لهن شأن أو وجود فى مسرح الحياة ، جابهتنى بكلامها المعهود :

ـ أنت غير صريح معى ، وتصر على الانكار ٠

ـ هل صرت وكيل نيابة وأنا متهم ماثل أمامك أنكر جريمتى ؟

أنقذنا رنين الهاتف فى المساء المتأخر لننهى الحديث الصحفى ، فاذا بأديب صديق يهنئنى على نشر قصة لى فى احدى المجلات ٠ وعاد الى زهو الأديب الفنان ٠ اختليت بنفسى بعد أن آوت سهام الى فراشها ، وما زال ابنى أسامة قابع بغرفته المضيئة المغلقة لم أشأ ازعاجه ، وواتتنى فكرة استرحت لها ٠٠ ماذا لو كتبت أنت مقالة تتحدث فيها عن نفسك وعن أدبك ؟ ٠ تذكر فيها تفصيلا لماذا انزويت عن باطل الأحاديث وأعرضت عن لغو الكلام ، واعتصمت بدارك تكتب ما ترى أنه جيد ورفيع ٠ فلقد ولجت الأدب من مدخل حسن ، يتبلور فى المقولة التى ما زلت مصرا عليها ، بأن الأديب لابد أن يكون ضمير الأمة وقائدا لمسيرتها ، ولا يرضى بأن يكون مكانه خلف الصفوف ٠ ان الساسة يحكمون ، ويسطرون مقادير الشـــعوب ٠ أما الأديب ففنـــان يزيل القشرة الخارجية ، يعرى النفوس ، ويهز الوجدان ، ويسطر ببراعة أحاسيس القلب ٠ هو

الصوت المعبر عن قضايا الانسان وهمومه ٠٠ استغرقنى الموضوع ، وأخذت أكتب وأكتب ٠٠ وكانت مقالة عن (رسالة الأديب) ٠ ثم كتبت مقالة أخرى زعمت أنها بقلم كاتبة ليس لها وجود على مسرح الحياة أسميتها (محاسن توفيق) اسم براق ٠ ومحاسن هذه أخذت تعتب على الوسط الأدبى اغفالهم اسم الأديب الكبير (محمود جبر) ـ الذى هو أنا ! ـ برغم أنه يناضل بالقلم منذ ربع قرن ، وواصلت الكتابة عن نفسى باسم محاسن ٠ واكتشفت أن الأديب خير ناقد لأدبه ! ٠ انه يعرف أدق التفاصيل عما كتب وعن حياته ذاتها ، ومدى التأثير المتبادل بين واقع الأديب وما يبدع من قصص ٠ أعدت قراءة ما كتبت باسم مستعار ، فرافقنى ما كتبت عن نفسى ، وبحثت لمحاسن ـ بناء على طلبها ! ـ على صورة حديثة لترفقها مع المقال ! وبعثت بالمقال الى مجلة أواظب على النشر بها ٠ وانتظرت نشر المقال ٠

طال الانتظار ٠ ثم فوجئت بالمحرر يرد فى زاوية (بريد القراء) ٠

★ الى الآنسة محاسن توفيق ، القاهرة : يبدو أنك حديثة عهد بالكتابة ، فموضوعك غير مترابط ، وينقصك الاطلاع والقراءة ٠ كما أن كلامك عن (محمود جبر) ينقصـــه قراءة أدبه ٠ اقرئى، يا آنسة محاسن ، ثم اقرئى ، ثم اقرئى ٠٠ فالقراءة عدة الأديب الناشىء ٠ وانى أتوسم فيك خيرا فى المستقبل القريب ! ٠

أخذت أقهقه ، وأشركت زوجتى التى لم تكن تعلم شيئا عن بطلتى الجديدة ٠ وان كان الشك ساورها بأن محاسن بنت وقعت فى غرامى ! ٠٠

(أكتوبر ١٩٨٨)

شبح النهاية

ليس غريبا أن يموت انسان هذه نهاية طبيعيـــة لكل كائن حى · الموت حقيقة مؤكدة سواء طال الزمن أو قصر · لكن المحير أن يموت السكرتير الفلبينى (بيالى) بغتة أمامى · انهـــا المرة الأولى التى أشاهـــد فيها انسانا وهو يموت · انزعجت · صرخت بأعلى صوتى · تجمهر الموظفون الـــذين لم يزعجهم سقوط بيـــالى قـــدر ما أزعجهم صراخى · عجبت لهم · هل قدت قلوبهم من الصخر ؟ ·

بيالى يقترب من الستين · عرفته منذ شهرين فقط ، هى المدة التى عملت فيها ، منذ غادرت أرض الوطن ، سعيا وراء وظيفة تدر دخلا غاليا · كان وجهه مأساويا · قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، وبوجهه اصفرار · تبدو بشرته كأنما دهنت بالسمن ، قليل الكلام والحركة ، ومن وقت لآخر يترك مكتبه ، قاصدا الطرقة فيذرعها جيئة وذهابا ·

فى السابعة صباحا ، كنت أقف أمام الباب ، منتظرا دقيقة أو دقيقتين الى أن قدم بيالى ، وفتح المكتب · جلست أكمل فحص ملفات أمامى ، فتناهى الى سمعى سعاله ·· كالمعتاد ·· لكنه اتسم بحدة مفاجئة ، وتوقعت منه أن يخرج الى الطرقة ، لكنه لم يفعل ·

تواصل السعال بحدة أكثر · نهضت متجها اليه ، فوجدته منكفئا ، مخبئا وجهه ، لاصقا جبهته بحافة المكتب · سألته :

ـ ما بك يا بيالى ؟ ·

ـ لاشيء · مشكلة بسيطة ·

حالة غير مطمئن لاحظت أنه تقيأ دما ·· انزعجت ·· خرجت الى الطرقة · لم أصادف أحدا يسعفه · عدت اليه فاذا به انهار من على كرسية ، وأخرج من جوفه دما غزيرا ·· تراءى لى شاة ذبيحة · عجزت عن التصرف · هل يمكن انقاذه بمفردى ؟ · صرخت بأعلى صـــوتى · قد يكون الصراخ غير مجد · أمسكت بسماعة الهاتف طالبـــا القسم الطبى · تجمهر حوله عدد غير قليل ونقلته عربـــة الأسعاف على وجـــه السرعـــة ، فعاجلـــه الموت قبـــل أن يصـــل الى المستشفى ·

وفى نصف ساعة تم تنظيف المكتب والكرسى والأرض · وفى النصف الآخر جلس الى نفس المكتب سكرتير هنـــدى شاب يدعى راما ·

اتجهت الى رئيسى الباكستانى · ابتسم ابتسامة ذات مغزى ، كأنه يعالج توترى ، وقال :

ـ شيء طبيعى أن يموت · شيء طبيعى أن يموت أى واحد منا ·

ـ هذا حق ·

ـ كان مريضا ·

مازال التوتر عندى فى أقصى حالاته · قدم الى زميل سورى وجالسنى · شجعتنى أريحيته وسعة صدره ، فاسترسلت معه فى حديث ··

ـ انها المرة الأولى التى أفجع بموت انسان بين يدى ! ٠

ـ كل نفس ذائقة الموت ٠

عرفت من رئيسى أنه كان مريضا بالسرطان ٠ لاحول الله ٠ ألم يعالج ؟ ٠

اتضح لى ـ بالبحث الدؤوب والسؤال الملح ـ أن جميع الموظفين يعرفون أنه مريض لكنهم لا يتكلمون ٠ الأغرب من هذا ، أنه لم يتردد على طبيب الشركة ؟ ٠ جلست مع الطبيب الذى استرشد بكل ما قلت ليكتب تقريرا على وجه السرعة ٠ وحين نهض منصرفا ، أكد لى أنه لم يتردد على القسم الطبى ! ٠ دهشت لحال بيالى ، الذى شاء أن يترك الداء الخبيث يمرح فى جسمه بغير علاج !٠

التقطت قصته من أفواه العاملين ٠ عرفت أن الداء هد قواه ، وكان قبل ذلك بسنوات قويا ، وجسمه أكثر امتلاء ، وكانوا يسمونه (الفيل) لضخامة جسمه ٠٠ و (بيالى) جد ، تعيش عائلته فى الفلبين ويعيش هنا وحيدا ٠ عرفت أنه كان يعيش فى عزلة قاتلة ، داخل مسكنه لا يبرحه الا فى مواعيد العمل ٠ وحرم نفسه من قضاء الوقت مع الزملاء ٠ الكل يعرف مرضه ، ولا يجرؤ أحد فى التحدث مع غيره فى هذا ، الى أن مات ٠٠ فتحول ما استكن بالصدور الى أحاديث يتناقلونها فيما بينهم أياما قليلة ثم صمتوا ٠٠

كم تأثرت بموت بيالى ٠ وبعد ما كنت أعزل نفسى فى حجرتى، بدأت أتحرر وأنطلق خارجها أحيانا أتجه الى النادى ألعب مع زميلى المصرى تنس الطاولة ، وأحيانا نجلس فى المساء نشاهد برامج التلفزيون ، أو نتسامر عن الأحوال فى مصر والحنين الى الوطن ٠ قلقت كثيرا على الأولاد ٠ اتصلت بالأسرة هاتفيا ، كل يوم أحادثهم لمجرد سماع صوت زوجتى وأولادى ، وأسألهم عن كل أفراد العائلة٠

وحين أختلى ليلا بنفسى ، يظل شبح بيالى ماثلا قبالتى · ربما كان فى حاجة الى نجدتى · أنا لم أقصر فى شىء قضاء الله نفذ · ما أطول الليل الذى أقضيه مؤرق الجفنين ، موزع الخاطر · بت ليالى العذاب بعـد الحادث ، لا أنام حتى يطلع النهـار يتضـاحك معى الزملاء · أحدهم يقول مازحا :

ـ أنت قتلت الرجل ·

وردد الزملاء قوله · واجهتهم بصمتى · لا شك أن مزاحهم يضايقنى ، لاسيما أننى أصبحت بحساسية ، فقد أكون نذير شؤم · لم يقل أحد شيئا ، لكنها نظراتهم ، فأنا الموظف الجديد بالشركة وبيالى هو الحالة الوحيدة التى ماتت هنا بطريقة مأساوية · وكلمة (مأساة) لم يقلها أحد ، انما هى تصور خاص بى لما وقع أمامى ، ووقفت عاجزا مكتوف اليدين مشلول الارادة · ما أضعفنى ! ·

ما زال الزملاء يواصلون المزاح معى من حين لآخر · يبدو أن ما حدث لبيالى كان أمرا متوقعا · لكن توترى شكل علامة استفهام على وجوههم · هذا التوتر حاولوا علاجه ففشلوا · واندثرت فى أيام قليلة حادثة (بيالى) ، ولم يبق منها أثر سوى توتر لا يفارقنى ·

طلب منى ضابط الشرطة أن أروى تفاصيل ما حدث · قلت ما فى جعبتى وبصدرى أسى عميق · ثم سأل رئيسى :

ـ هل كان مريضا ؟ ·

ـ كل ما أعرفه أن نوبات سعال تواتيه من وقت لآخر ·

محضر الشرطة مجرد استيفاء بيانات · والطبيب أنجز تقريره ، وقال فيه أن المتوفى لم يتردد اطلاقا على العيادة ، وانما دخلها جثة ممددة على نقالة الاسعاف ! ·

هل آثر بيالى أن يعالج نفسه ؟ • تبدت له الحقيقة ، ربما من سنتين أو ثلاث ، فتكتم الأمر • ولا أعرف كيف تحمــل هذا الموت البطيء ؟ • هل كان يائسا من الشفاء ؟ • أم قصد الانتحار ؟ • هل معرفته بالمرض ، فرصة مواتية لينسحب من الدنيا فى صمت ؟ • غريب أمرك يا بيالى • يا من حفرت فى ذكرتى أخدودا عميقا • كل ما أعرفه عنك وأنت حى ، ذلك الصمت المريب ، وأرجعته أنا الى كبر سنك • ثم ودعت الدنيا لتترك لغزا غير قادر أنا على فك طلسمة •

قلت لرئيسى فى حدة :

_ لا بد أنك عرفت بمرضه •

_ صه ••نعم عرفت ، وكان سرا بينى وبينه •

_ لماذا لم تبعث به الى الطبيب ؟ •

_ كان يخشى على رزقة •

_ رزق ! •• لابد أنه قصد الانتحار ، وخدعك بحاجتــة الى المال •

لم تجد كلماتى المحتدة مع رئيس • قد يكون بلا ذنب ، وتكتم بدافع الشفقة • وضحكت فى أعماقى : أى شفقة يقصد ؟ • بيالى لم يمنعه أحد من التوجه الى الطبيب •

وسرى وهم بين الجميع ، بسبب الداء الخبيث • الكل يخشى أن يتسلل الى خلايا الجسم خلسة • تردد البعض على القسم الطبى طالبين كشفا عاما وعمل تحاليل • تســـابق العمــال والموظفون الفلبينيون فى الاطمئنان على صحتهم • بدوا هادئين ظاهريا أمام حالة بيالى •وان كان القلق يساورهم ، فخفتت ضحكاتهم وقل صياحهم ولهوهم • بدأوا يتكالبون على ممارسة الرياضة • وصــار مشهدا

مألوفا أن أرى جماعات منهم تتريض عند الغروب فى طريق أسفلتى شق بوسط الصحراء يقتلعون منه عدة كيلومترات سيرا أو جريا ، تنشيطا وتحسبا من مصير قد يواتى واحدا منهم ، كما سارع الكثير منهم الى الكتابة الى زوجاتهم فى الفلبين عن مدخراتهم الحقيقيـة . بعد أن كان البعض يخفى ذلك ، لتكون له فرصة للهو والمجون عندما يسافر فى أجازته السنوية ٠

كانوا يستميتون فى البرء من أى سلوك أو طبـع لبيـالى ، ويدفعون عنهم أى أعراض جسمانية كان بيالى يشكو منهـا ٠ أهو الخوف من الموت القـدر ؟ ٠ رسم شبح الموت ظـلاله القاتمـة على قسمات الوجوه ، كأن موت بيالى قد أفاقهم الى الحقيقـة المؤكـدة الحدوث أما أنا ، فما زلت أحاول أن أجد تفسيرا ما لاقدام بيالى على الانتحار !

(أكتوبر ١٩٨٨)

طريد العيــون الزرق

ــ ما حكايتك مع العيون الزرق ؟ ·

للامتحان ــ تبحث فى مراجعها ، التى هى أشعارى المبعثرة فى صحف ومجلات ودواوين صغيرة صدرت لى · واستشهدت بأبيات غزل فى هاتيــك العيون · الدهشة اعترتنى · وخيــل الى أنى موضوع فى قفص أتهام · انبريت مدافعا ، فقلت بلغة منطق عرجاء :

ــ ستجدين أشعار غزل فى العيون الأخرى ·

اتسعت ابتسامتها وأطلقت للضحك المرح سبيلا للترويح · فما أرادت الا التفكه ووخز الأبرة الخفيف · قالت الشقية :

ــ لم تصف ، يا شاعر الحسناوات ، سوى العيون الزرق ·

أسكتتنى ردها · فأنا ممن يقرضون الشعر ولا يحفظون منه شيئا · وكان على أن أعيد قراءة أشعــارى ، حتى أؤيد رأيى · أما رباب فتذكر شعرى جيدا ، بل تكاد تحفظه · وردتنى ــ انصافا لى ــ الى بيان تغزلت فيها بالعيون · ولم أتعرض للونها ، وقالت متشككة :

ـ ربما ٠٠ هذه ٠٠ عيون أخرى ٠

وتهت فى ذكريات بعيدة حفرها الوجدان بداخلى ٠ رجعت الى الوراء سنوات وسنوات ، حينما كنت فى العشرين طالبا بالجامعة ، وأسرتنى زميلة بللت من الحسن آية من آيات الخالق ٠ وكانت عيناها زرقاوين ٠ أسرنى الغموض الكامن وراءهما ٠ كلما رنوت اليهما ـ وأنا أحدث صاحبتهما ـ أضعف فأصمت أو يخفت صوتى ٠ ذلك أنى أبحرت فى اللغز المحير٠ حسست أنى أبعد مسافات بعيدة٠ وبدأت قرض الشعر رغم أنى أدرس بكلية العلوم ، نظريات علمية جافة وتجارب معملية ٠ تحاشيت مواجهة فاتن ٠ وان حادثتها ، أتجنب النظر الى عينيها ٠ كانت فاتن فتاة عادية ، ولا تجمل عينيها أو وجهها بأى من مساحيق التجميل ٠ وعكس بياض الوجه مع زرق العينين ، هذه الصورة التى لم يبدعها فنان ٠ ذات مرة ، تجرأت وقلت لها :

ـ عيناك ٠٠ مدهشتان ٠٠

رنت الى بابتسامة حلوة ٠

أفاقتنى رباب من ذكرياتى وشرودى بقدح شاى وابتسامــة انتقلت من شفتيها الى وجنتيها ، فشابهما أحمرار خفيف ٠ قلت لها :

ـ كان بشار بن برد أعمى ، ولكن العيون هى الشىء الحاد الذى جذبه الى بنات ونساء عصره ! ٠

رباب تحاول استقراء ما يرتسم على ملامحى ٠٠

ـ لكنه قال الشعر فى كل العيون ، دون تميز ٠

ـ كان من المفروض أن أول ما يستهويه فى المرأة صوتها ٠٠ أهو التحدى ؟ ٠

ـ يعنى ٠٠

ـ هل تقصد أن أجمل الشعر أكذبه ؟ ٠

ـ أم تقصد أنك لم تصادف صاحبة العينين الزرقاوين ؟ ٠

تهت فى ذكريات أخرى ، حين أوفدت فى بعثة الى روسيا ، والتقيت بفتاة تدعى مارينا ٠ أعجبنى هدوءها وصمتها ٠ التقيت بها فى حفل تعارف ٠ جالستها وأخذت أتملى فى عينيها ٠ وقلت كلاما كثيرا عن سر كامن فيهما ٠ هل أفصح السر يافتاتى ؟ ٠ وكانت مارينا بحديثى معجبة ٠ قالت مندهشة :

ـ لم أسمع هذا الكلام من قبل ٠

تعددت لقاءاتنا ٠ لم أقترب من جسدها ، واقتصرت على قبلات سريعة ، فعجب زملاء البعثة من غرامى الأفلاطونى ٠ كلما نظرت الى عينى مارينا ، أبحر فى بحار بلا شواطىء ، وأرتقى سماوات زرقاء صافية خلابة ٠ وكانت مدة البعثة لا تتعدى الشهور الأربعة٠ وعدت الى مصر محملا بأشواق صغتها قصائد حلوة عن خبء العيون ٠

أفاقتنى من حالة التوهان ٠

ـ أقترب عيد ميلادك ٠ كل سنة وأنت طيب ٠

وصمتت تفكر ، ثم سألت :

ـ هل تشير على بالهدية التى تريدها ؟ ٠

ــ لا داعى ٠

ــ الأمر سهل ٠٠ لن أختـار ككل سنة ٠٠ سأهديك رابطة عنق زرقاء وقميصا أزرق ! ٠

ــ الشكر لك على كل حال ٠

سألتنى أيضا :

ــ هل تذكر واحدة من عائلتك ، كانت عيناها زرقاوين ؟ ٠

ــ لا ٠٠ اطلاقا ٠٠

وسرحت قليلا ، لا فى عيون بنات العائلة ، وانما فى عينى علياء جارتى ، حين كنت طالبا بالثانوى ٠ تعلقت بها ٠٠ أقطف كل يوم وردة حمراء من شجرة ورد بحديقـة المنزل وأهديها اياهـا ، فانعم بكلمة شكر لطيفة ٠ كما كنت أقتفى أثرها كل صباح ، حتى تدخل باب المدرسة ، ثم أتجه الى مدرستى ٠ وفى العودة ، أخرج مهرولا ، قاصـدا مدرستها ، وأتعقبهـا حتى باب منزلهـا وكنت أحدثها ــ أحيـانا ــ عن الصدفة العجيبة التى تجعلنـا نتقابـل ، فتضحك وهى تغمز لى بعينيها اللتين كانتا أيضا ٠٠ زرقاوين ٠٠

داعبت أناملها سوالف شعرى قائلة :

ــ لماذا لم تتزوج واحدة منهن ؟ ٠

قلت متحاشيا النظر اليها ، ومثبتا نظراتى فى الأرض :

ــ تقصدين من ؟ ٠

استفزنى صمتها ٠٠

ــ أتقصدين فاتن ، أم مارينا ، أم علياء ؟ ٠

ـ ما شاء الله ٠٠وتدعى أن بشاراً أطربه حديث العيون ٠ لقد كان الشعر عندك ،أجمله أصدقه ! ٠

نفرت من جانبى محتدة :

ـ يبدو انك تزوجتنى ، لمجرد شغل فراغ ما ٠

ـ أنت تعلمين كيف تزوجنا ٠

ـ كـنت بشعرك معجبـة ٠ واظبت على حضور ندواتـك . وأجريت معك حوارا نشرته بالصحيفة ٠ كان أعجابا من جانب واحد فقط ٠ وهذه حماقة منى ٠

ابتسمت ، محـاولا تهدئتها ، ومحـللا دوافع قول الشعر ، وحكيت عن زرقاوات العيون فاتن ومارينا وعلياء وغيرهن ، اللاتى تذكرتهن ٠ هل يحفر الغموض شيئـا فى اللاوعى ، فيدفعنى الى الشعر ؟ ٠ طرحت سؤالى فاستنكرته ٠٠

ـ لا تحاول التفلسف ٠

ونهضت مسرعة الى المكتبة ، وأحضرت شريط فيديو قائلة :

ـ هذا الفيلم ، سجلته أنت بنفسك ٠

ـ وماذا فى ذلك ؟ ٠

ـ لأول مرة تهتم بالتلفزيون ، ولأول مرة ـ أيضا ٠ تسجل فيلما ٠ كل الشرائط التىأمامك ، اشتريتها بنفسى أو سجلتها أنا ، ولم تتدخل أنت فى شىء ٠٠ سوى هذه المرة ٠٠ وهذا مالفت نظرى٠

ـ قد تكون البداية لتسجيل أفلام أخرى ؟ ٠

ـ لا يا أستاذ ٠ أتدرى السبب ؟ ٠

ولم تنتظر أجابة منى ..

ــ السبب أن عينى البطلة زرقاوان . لا تتفلسف . أضف اسم هذه الممثلة الى حبيباتك ..

صمت . تعودت أن أواجه سورة غضبها بالصمت . هذا أفضل . استطردت تعدد أفضالها على ..

ــ حتى ندواتك ، ياشاعر يا عظيم ، لم تحفل بتسجيلها حينما يذيعها التليفزيون . واهتممت أنا بها . فوقتك وزعته بين القراءة والكتابة . لقد دفعنى اعجابى بشعرك الى جمع كل ما كتب عنك فى ملف خاص .

وسرحت فى حبيباتى ، كما تسميهن زوجتى ، انهن طليقات فى الدنيا ، مثل حمائم تطير فى السماء الواسعة .

وهذا الفيلم ، يبدو أن عينى الممثلة كانتا سببا بدات أقتنع بمنطقهـا . لكنى حين قمت بتسجيله ، كنت أعمد الى التغيير . لا داعى لتوضيح ذلك . ستعتبر كلامى مجرد تبرير .

قد تتصرف دون أن ندرك السبب الحقيقى لما نفعل . لماذا أنكر هذا الشىء المثير فى زرقة العيون ؟ . لماذا أنكر أن تركيز المصور على عينى الممثلة ، قد جعلنى أتوه فى هاتيك النظرات ؟ . وهذه ثانى مرة أشاهد فيها الفيلم .

اقتربت منها ، وربتت يدى على كتفها . رنوت الى عينيها ..

ــ عيناك نجلاوان .

ــ الله يجبر بخاطرك .

ابتسمت . رنوت الى عينيها الكحيلتين ، متعمدا كسر الحاجز

الوهمى بينى وبينها ٠طبعت قبلة خفيفة على شفتيها ، فزال عنها هم كثير ٠ عرفت ذلك حين ابتسمت لى ، وقالت فى فرح :

ـ اتوقع أن تكون عينا الوليد المنتظر ٠٠ زرقاوين ٠٠

ـ يا عالم ٠٠

وتحسست بكفى بطنها المتكورة ، وأدمت النظر الى عينيها ٠٠ العسليتين ويحى ! ٠٠ ويا طول اغرابى ! ٠٠

كيف لم أهتد من قبل الى لون عينيها ؟! ٠

(فبراير ١٩٨٩)

ابنتى ريهام

بذر بذرته فى أحشائى وارتحل بعيدا عنى ٠ سافر الى البلد البعيد ٠٠ حيث يزاول عمله ، ويطيب له المقام ٠

كثيرا ما أغرانى كى أسـافر معه ٠٠ « خذى أجازة بدون أجر » ٠ ولكنى أرفض بشدة ٠ شىء ما يربطنى بعملى ، فأحسست أن مكتبى العتيق بالبناية الحكومية الصفراء ، حائلة اللون ، يشكل دارا عريقة أعتز بها اعتزازى ببيتى ٠ وكثيرا ما أشبه نفسى بشجرة عتيقة امتدت جذورها فى أعماق الغربة ٠ تلتمس الرى من جوف الأرض ، لتبقى على حياتها ٠ وكما أنه من العسير أن تقتلع مثل هذه الشجرة من تربتها ٠ حقا ٠٠ من المؤلم أن تجتث الجذور ٠ كذلك أنا ٠٠

همست صديقتى فى أذنى تصفنى بالحمق ٠٠

ـ أجل يا نرجس ٠٠ أنت حمقاء ٠٠ من يترك العيش فى راحة ، وينكب على ملفات متربة ، ويفنى عمره سدى ٠٠٠

أحتج على قولها الصارم ٠ وأواجه منطقها بأن أمى العجوز فى حاجة الى خدمتى ومساعدتى ٠

قاقلة أنا منذ شعرت بأعراض الحمل . هذا الذى ينمو فى أحشائى ، قد جاء على غير موعد .

ذات أمسية صيفية ، لا أدرى كيف أسلمت نفسى بعد طول عناد ، ولست بقادرة على منع ما شاء الله وقدر .

قرأت أن الحمل فى سن الأربعين له مخاطره ومحاذيره . ثم أن وحيدتى قد وضعتها منذ سبع سنوات خلت ، فما أبعدها فترة بين حملين ! .

فى تلك الليلة ، استبد بى خاطر بأن أستحوذ على مدحت . انه رجلى ، وخير لى أن أعوضه عن سنين الغربة . انه يدخر المال من أجلى ، ولا يبخل على شىء .

ليلة شحيحة فى العمر . هكذا وصفها مدحت ، ساخرا من واقع أعيشه ولا يرضى عنه . والغريب أنه لا يألو جهدا فى تغييره .

وخمنت أنه فى تلك البلد البعيدة يلهو كما يشاء . لهذا لا يعبأ كثيرا بعصبيتى — على حد وصفه لمشاحناتى معه — التى كان يواجهها بالهدايا ، واعطائى ما أحتاج اليه من مال وفير .

ريهام همزة وصل تربطنى بهذا النطاط من بلد الى بلد .. يقضى الصيف كله ، محاولا ادخال المرح والسعادة فى قلب ريهام ، ويقول ساخرا :

— أقدر على اكتساب حب ريهام ، ولا أقدر على اكتساب حبك .

وكثيرا ما تقول لى أمى :

— أنت طول عمرك دماغك ناشفة .

تنصحنى صديقتى بأن آخذ أجازة قصيرة أقضيها مع زوجى ، ولو بضعة أيام . وأمانع . لقد كبرت على سن المرح واللهو .

ومر صيف هذا العام كحلم ليلة من ليالى ألف ليلة . وفوجئت به يودعنى ويستقل سيارة أجرة الى المطار ، متجها الى هولندا . لم يدع لى فرصة أن أستقل سيارتى الخاصة ، وأصحبه الى المطار. كان يجدر بى أن أبادر . لكنى تباطأت ، أمام تسرعه فى توديعى وغمر وجنتى ريهام بالقبلات ، وغلق حقيبته الصغيرة . لم أتنبه الى شىء ، سوى أن ما كان نجما مضيئا فى سمائى ، قد اختفى سريعا ، وأحال حياتى الى ظلمة قبو بارد . وعلى أن أعود الى حياتى المعتادة ، شهورا طويلة ، على أمل اللقاء به من جديد .. فى الصيف القادم .. وتوزع اهتمامى بين ابنتى وعملى . ويبدو أن اهتماما ثالثا طرأ فجأة .. بسبب الجنين الذى ينمو فى رحمى . وبدأت أخاف . خوف لا أدرى منشأة . ولكن احساسا خفيا بأن الجنين قد يكون سببا فى وفاتى ، أو أنه سيولد ضعيف البنية .

استبد بى قلق عاصف ، ليس على حياتى وانما خوف على ريهام ، وعلى الوليد المنتظر . فـاذا مت ، سأترك ريهـام فى مهب الريح . لا . ستكون فى رعاية أمى العجوز المريضـــة . عفوا يا ربى ، ستكون فى رعايتك سبحانك . واذا ما عشت وقدر لى أن ألد ، فان الوليد سيولد ضعيف البنية ، أو .. مشوه الخلقة .. لا أدرى لم هذا الهاجس الخفى المجنون الذى يطوف بمخيلتى ، بأن وليدى ناقص النمو . وعرفت الطريق الى عيادة الطبيب ! .

اننى خائفة من كلا المصيرين . ليس خوفا على حياتى ، وانما هو خوف على ابنتى ، وعلى الوليد المرتقب.

تخيلت ريهام الصغيرة — من بعدى — يتيمة تتلقفها الأيدى وتعيش فى بيوت غير بيتها . أقول بيوتا ، نعم .. فلن تستقر فى بيت واحد . قد تعيش فى بيت أمى المريضة ، التى لا تقوى على خدمة نفسها ، فيقتر حعمها — هكذا أتخيل — أن تعيش فى بيته .

لكن العم رجل سكير ، ينفق أمواله على اللهو والمجون . لا . سأختار لها بيت خالتها .

وسخرت من نفسى ، هل بمقدورى وأنا فى عالم الغيب أن أختار شيئا ريهام أو غيرها ؟ . تقيم أختى اسعاد فى شقة متواضعة بحى فقير ، وحالتها المادية متعسرة . أما أخى محسن .. هل تتحمل زوجته ريهام ؟ . هى عصبية المزاج ، تثور لأتفه الأمور ، ولا تحصد شيئا سوى حرق الدم ووجع الدماغ .

كما أنهم . كلهم .. سوف يطمعون فى ميراثها . تخيلتهم جميعا ينتفون ريشها ، وتصبح طائرا مكسور الجناحين ، لا تقوى على التحليق فى دنيانا الواسعة . سوف يتوددون اليها ويأكلون لحمها ، ويتركونها جلدا على عظم . أواه ربى . أى مصير مخيف ..

أفاقتنى زميلتى ثريا ، من أحاسيسى المتشائمة :

– ليست الحياة شرا كاملا . هذا مؤكد . ثم ...

وشردت فى البعيد ..

– الأعمار بيد الله .

– أحس يا ثريا بنداء الموت يصخب فى دمائى . الكابوس يكاد يجثم على صدرى ، يمسك بخناقى ، ويكتم أنفاسى .

– أوهام سببها الحمل .

ولاطفتنى . ساعدتنى . أخذت بيدى . وكثيرا ما تسرى عنى بأحاديثها اللطيفة ، وسؤالها الدائم عنى أثناء العمل ، وبالهاتف فى المساء .

ومن باب الاحتياط . نعم سأحتاط . نشط ذهنى ، وبدأت أسرع فى انهاء اجراءات تضمن لابنتى مستقبلها . سجلت ملكية سيارتى باسمها . وكتبت اقرارا أوصى فيه بدفع المعاش لابنتى فقط ، لا يشاركها فيه أحد . كما أخذت تحويشة العمر واشتريت لها شهادات ادخار من البنك .

أخيرا استرحت . هدأت خواطرى . سكنت زوابع القلق . وان اعترانى غضب من زوجى المستهتر . ما ان رحل بعيدا عنا ، لم يكلف خاطره بكتابة خطاب واحد . نسى أن له زوجة وبنتا وجنينا فى رحمى . نسى كل شىء . وحين يعود ، يشعرنى أننى دنياه ، وأننى كل شىء فى حياته .

غالطت نفسى وكتبت رسالة ، فلم أظفر برد ، وندمت على ما فعلت . المرة الوحيدة التى حدثنى فيها هاتفيا ، فور وصوله . وبعد ذلك ، نسى كل شىء ، وقنع بدنياه الجديدة أو ألهته . لابد أنه يعاشر امرأة غيرى .. ويحى .. ماذا أفعل لو قدم الى القاهرة متأبطة ذراعه شقراء ؟

خاطر أسود آخر ينغص على حياتى . أنا وحيدة فى عالم موار . أشرف على الغرق فى بحر متلاطمة أمواجه . وريهام الحبيبة تذكرنى بأبيها وهداياه واللعب ، فأجاريها لحظات أزرع بسمة الحب على شفتى ، وأكتم بقلبى كل المرارة . وان كانت تسألنى متى يرجع ؟ . انها مشتاقة لهداياه . وتظل تخمن فى أى اللعب سيأتى بها . وتتذكر ما طلبته منه . طلبت بيانو تعزف عليه نغمات رقيقة كتلك التى تسمعها .

وحانت لحظات آلام الوضع . نقلونى سريعا الى المستشفى ، ولم أدر التفاصيل ، الا بعد افاقتى من المخدر . عملية قيصرية . الحمد لله . غفوت قليلا ، حلمت خلالها بمدحت يستقل أول طائرة ،

يطير على جناح السرعة ، ومن المطار يستقل سيارة أجرة ، رأسا الى المستشفى . يأتى الى . قلقا كان . متعثر الخطى . ينحنى على السرير ، حاملا باقة ورد ، وابتسامة حانية تزين وجهه ، قائلا فى سرور :

– حمد الله على السلامة .

وفتحت عينى على الطبيب المعالج ينحنى قائلا نفس الجملة ، ونفس الابتسامة الحانية مرتسمة على وجهه . كرر العبارة ثلاث مرات ، كأنه يهنىء نفسه على نجاح العملية ! .

(مايو ١٩٨٩)

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٠٥ / ١٩٩١

ISBN — 977 — 01 — 2772 – 8